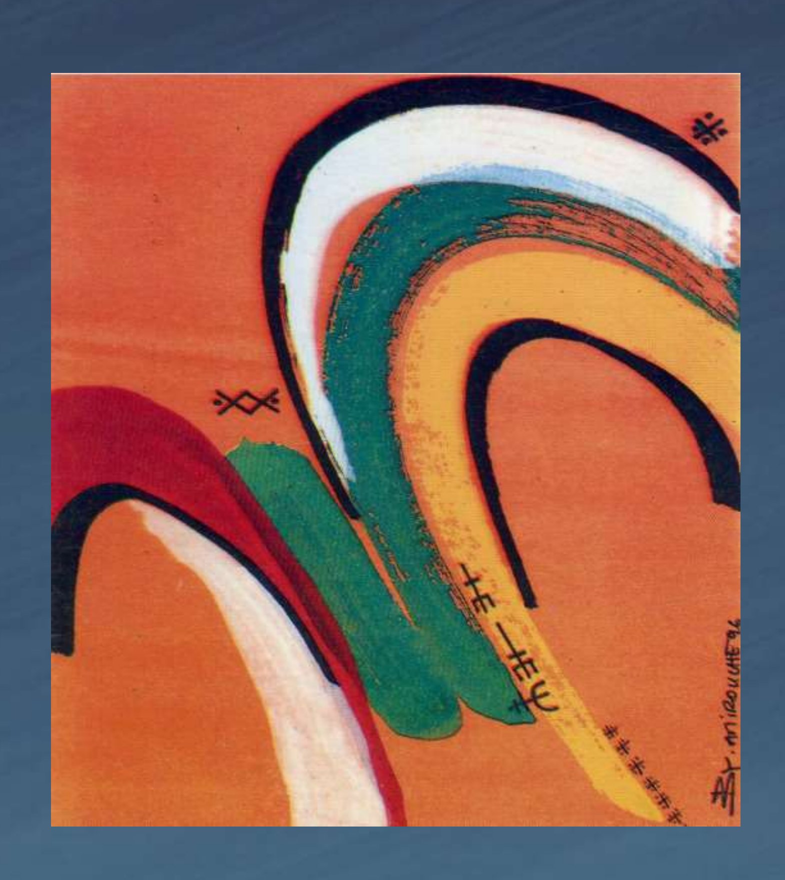
محمد أسليم

مذكرات شيزوفريني



كتاب الفقدان

نص سردي

محمد أسليم

كِتَابُ الفُقْدَان

مذكرات شيزوفريني

نصٌّ سردي

محمد أسليم
كتاب الفقدان؛ مذكرات شيزوفريني
الغلاف: الفنان بنيونس عميروش
الطبعة الأولى: 1997
الإيداع القانوني: 1997/10
مطبعة المناهل - الرباط

إشـراق التبعثـر



عندما أحسَسْتُ بأن العالم قد سكَنَنِي بكيفية بدأت تحدثُ لي تعثراتٍ جسدية واضطرابات نفسية قرَّرتُ أن أضعَ حدّا لحياتي:

مددتُ يدي بهُدوء إلى علبتي لاركاكتيل Largactil وعلبة هَالدول Haldol من المائدة الصغيرة التي كانت على مقرُبة من سريري. تناولتُ العلبتين، وأخطأتُ الثالثة. لحظتها شعرتُ بطنين يَرنّ في رأسي، ودبيبٌ يسري في جسدِي بشكل مثير للدُّوار. إلا أن المفاجأة كانتْ أكبر: فعلى العَكس مما كنتُ أتخيله بشأن الذينَ يختارُون مُغادرة الحياة من هذه الطريق، حيث كنتُ أتوهَّم أنهم يعانونَ من آلام مُمزّقة تذهب ببعضهم إلى حدِّ الندم على اختيار الموتِ، والرغبة في العودَة ثانية إلى الحياة...، على العَكس من ذلك غمرني ذهولٌ وَنشوة عجيبان. ظللتُ في حال الدوار ذاكَ مدَّة لا أستطيعُ تقدير معادلها الزَّمني. اجتاحتني دفقةٌ أخرَى مَألوفة جدّا: رعشة الإنزال التي تتوّجُ فعل الجماع. لكن ما فاجأني هُنا هُو: فيما كَانت الرَّعشة من قبل تنتهي بنهاية الإنزَال، فإنها دامَت هُنا مدّة طويلة جدا قد تعادلُ سنة زمنية أو أكثر. بعد ذلكَ، اكتسَحت جسدِي حرارة مهولة. كأنني أُلقِيتُ في النار حيّا على طريقة إحراق أوروبا ساحراتِها إبان فترة مُطاردة السَّاحرات وانتشار محاكِم التفتيش، أو كأنني أجتاز الطورَ الأخير من طقسٍ جنائزي هِندِي أو بَالِيّ.

غير أنّ تلك الحرارة المحرقة سرعان ما تحوَّلت، دون أن ألمس صيرورة التحوّل، إلى بردٍ جليدي أعطاني إحساسا بأنني ألقِيتُ في صَحراء من جليد. في تلكَ اللحظة صرتُ أنا الذي أتحكَّم في الإحساس وأسيِّره. فحينما أريدُ الحرَارَة أصبح نارا، وعندما أريدُ البرودة أصيرُ ثلجا، وحينما أريدهما معا أتحوَّلُ إليهما معا. هل مِتُّ؟

ليس الموتُ هو أن تقطع صلتَك بالكائنات والأشياء من حولك. أن تموتَ هو أن تواصلَ صلتك بالكائناتِ والأشياء، لكن دون أن تستطيع التواصُل مَعها ولا حَولها، بمعنى أنك تدرك وجودهَا، وتعرف أنك تدرك ما أنت مدركه، ولكن كلّ ما تملك قوله لا يمكن أن يتجاوَز في أقصى الحدُود إحدَى هذه الكلمات: «أنا»، «أنا هُنا»، «الآنَ»، «الآنَ هنا»، «الله»، «الله هُنا»، «الله الآن»، لأنّ كل ما تعداها يتحوَّل إلى استحَالةٍ، إلى التّوَاصُل الذي هُوَ انتفاءٌ للموتِ الذي تَكونهُ آنذاك.

لقد ضاع فِيَّ التواصُلُ حول الأشياء عبر رسَائل كلامية وغيرها وتحوَّل إلى شبه تلاش لي في الأشياء، إلى امتدادٍ لبعضنا في البعض الآخر. إني انتقلتُ من موتٍ في حالةِ أزمةٍ إلى حياةٍ في وضع أزمة. من أزمة موتٍ إلى أزمَة حياة. أجدُني في سَرير بأحدِ مستشفيات الأمراض العَقلية. أعلمُ أن الطبيب قد «أحبط» محاولتي. لكن أي إحباطٍ؟ أنا الآن حي - ميتٌ. أحيا مَوتي بالقدر الذي أموتُ به حياتي، وما يُنطِقني اللحظة من الدّاخل سِوى الموتِ نفسه. نعم، لقد لبسَنِي الموتُ وها هُوَ يُملي عليّ الآن ما أنا كاتبه. وخلالَ قيامي، وقعودي، وجلوسِي، ومنامي، وتجوالي، لا أرى سوى ضبابٍ وغبارٍ ورائحة موتٍ...

*

*   *

من أين كانت البداية؟ لم أدر بالضَّبط أيّ شيء طَرأ على مجرَى حياتي فجرفني إلى قعر هذه البئر التي أقبع فيها الآن. لكن يسُودُني اعتقاد شبه يقيني بأن كلَّ شيء قد انطلق يوم أحَالني طبيبٌ على طبيبٍ آخر عبر طلب الفحص التالي:

طلب فحص	**جواب الاختصاصي**
اسمحوا لي أن أحيل	....
إليكم هذا المريض الذي	....
يبدو، من خلال المقابلة التي	....
أجريتها معه، أنه يحمل	....
أعراضا شيزوفرينية.	....
	التوقيع
التوقيع.	

لم أفاجأ بكلمَة «شيزوفرينيا». فمن قبل طالما خَامرني الإحساس بأني كنتُ مصابا بهذا المرض بالضبط. لكن ما فاجَأني هُو الطّريقة التي كان يعاملني بها الطبيبُ. لماذا كان يكلمني بالكيفية التي يُكلَّم بها عادة

الصبيان والأطفال؟ عفوا! لماذا زُرْتُ الطبيب؟، بل أأنا الذي زرته أم أنَّ شخصا ما هو الذي زوَّرَني إياه؟

لكي أختبرَ صحة ما قاله الطبيب بخصُوصِ «مرَضي» وأرى بنفسي أين تضعني صِنافة الأعطاب العَقلية والنفسية أمسكتُ معجما لمفردات التحليل النفسي، وأخذتُ أتفحَّصُ المصطلحات واحدا واحدا صُحبة نصوص الشروح المرافقة لها. وكلما أنهيتُ قراءة مصطلح وفهمه شرعتُ مُباشرة في البحث عما يمكن أن يقابله من وقائع في ركام أحداث حَياتي. لكن، أيّ شيء عثرتُ عليه! بل ماذا أقول؟ يا لغبني أم يا لغباوتي؟! فأنا لم أجدْ كل أسماء الأمراض والعُقد النفسية تنطبق علي فحسب، بل وَجدتُني معجما يسَع سائر مُصطلحاتِ الأمراض النفسية، ووجدتُ المعجَم «الحقيقي» مجرَّد نصّ يتضمن مفرداتٍ مُبهَمَة يتعين على كل من رَامَ شرحها أن يعود إلي كي أقصَّ عليه مجموع وَقائع حياتي!

*

*   *

لقد جعلَ الاختلافُ بيني وبين الآخرين من التَّعامل معهم صفعاتٍ ترتطمُ بخدِّي كما تصفع هُدُوء الحشاش كلمة تهوَى عليه دون استئذان ولا سَابق إعلام. لقد صَار عقلي صورة مُكسَّرة للعالم وأصبحَ الناسُ يتظاهرونَ من حولي بمظهر مُومِيات محنطة. فمَا من كلمة أفوه بهَا إلا وتثير الإحسَاس بالغرابة لدَى الآخرين. في أقصى حالات التأدُّب والمجاملة يُعيرونني آذانهم، وفي حالات دُنيا من التأدب

يُعرضونَ عن الاستماع مختلقين لذلك أعذارا أو مواعيدَ يزعمون أنها في غاية الأهَمية. وفي كلتا الحالتين لا أحْظى بأي كلمة منهُم. لا تعليق، ولا نقاش، ولا استفهَام، ولا استفسار، ولا اعْتراض... كأنني أحدثهم بلغة نزلتْ من كوكب آخر، علما بأنني أطرحُ وأناقش قضايا منهم وإليهم. قضايا لصيقة بأنوفِهم وعيُونهم، وإن كانت تبدو في حَجم الكون. نعم، كثيرا ما يسخرونَ مني بطرُق بارعة في المرَاوَغات الذكية، لكنْ لي اليقين بأني أؤزمُهم بالقدر الذي يُؤزمونني به. كلانا أزمة للآخر! عُقولهم علب مغلقة وعقلي هواءٌ طلقٌ. معرفتهم محجمة بأحجام وموزونة بموازين، وأنا درجَة صفر في المعرفةِ. لذلك لم يقبلوا أن أطرح عليهمْ أسئلة كثيرة، ورفضوا التعاون معي لفكّ قضايا نظرية عسيرة... فقد أعرضَ أحدهم مختص في البصرياتِ عن مُساعدتي في صياغة «نظريةٍ في المعرفة انطلاقا من النّفادِ إلى الكون من عيني قط». كما أعرضَ آخر مختصٌّ في الفيزياء عن مساعدتي في بناء نظرية حَول «علاقة المعرفة الإنسَانية بالوَضع الفيزيائي لجسدِ الإنسَان وما يترتبُ عليه من تمثلات مخالفة لتمثلات باقي الكائنَات الأخرى»، وذلك رغم أنني صُغتُ في هذه الحالة ورقة عملٍ في غاية الدقة والوضوح، مُعزَّزة بجداول ورسوم بيانية وفرضيات ومعطيات متعددة بدءا من آدم وحوَّاء والأفعى، مُرورا بمقتل أبي مسلم الخرسَانيِّ، ووصولا إلى مشارِيع العَين الثالثة، والقَدم الثالثة، والمشي على البطن والحواس الخمس والعشرين... أعْرَضَ عن مساعدتي رغم أن مَوضوعا كهذا يفي منتهى الإغراء والتشويق لما سينتج عنه من انقلاباتٍ جذرية في تصور الإنسان للكون: فمثلا ستصيرُ علاقة الإنسان بالسّماء عَلاقة تحتية وليس

فوقية كما هُو الشأن حاليا. وسيصيرُ من الخطأ قول «الصّعود إلى السَّماء» لأنَّ الصَّوَابَ سيكون هُو «النزول إلى السَّماء»، كما سيُصبح من الخطأ قول: «سقط المطر» لأن الصَّحيح سيَكون هو «صعد المطرُ». وسيصير الإنسان في وضع المُدَلَّى من الرِّجْلَينِ والحامل للكرة الأرضيةِ بصفحتي قدميه...

وبما أنّهم جميعا رفضوا مثل هذه الأفكار، رَغم أنها أكثر الخواطر سَذاجة مما يشغلني حاليا، فقد ارتأيتُ من غَير المجدي أن أبوحَ لهم بنظرياتٍ أخرى من نوع: «ماركس هوَ الوجهُ الآخرُ لسيدي عبد الرحمان المجذوب»، أو «نظرية النّشوء والارتقاء لداروين تأكيدٌ لنظرية وَحْدَة الوجود عند ابن عربي»... ولذلكَ قرَّرْتُ أن أحتفظ بها لنفسي وأن أتأملها بمفردي. لكن بما أن لا أحد يسمعني فقد قرَّرتُ أن أضع فتحة بسِعَةِ بَابٍ في رأسي كي يتمكن الآخرون من دُّخوله والتّجول في حدائقه الخلابة التي لا أستطيع حتى وصفها، فأحرى أن أخرجَ ما فيها:

«إني ناطقٌ باسم عالمٍ مفقودٍ،
عالم لم تدخلوا إليه.
لأنك إن تدخل إلى هذا العالم
تضيع،
وتصير غير مكتمل.
كبدك،
رئتاك،
فرجُك،
كل ذاك مِلكٌ لك.

أما رأسُك،

فلا.

إن كنت مجنونا، فتعال أحتضنك بين ذراعي.» (ليو فيري Léo Ferré)

لمعرفةِ الأصل في مرضي، ونُشدان علاجي ساقني أهلي إلى ثلاثة أطباء للأمراض العقلية، وشيخ يمارسُ السحرَ والشعوذة، ثمَّ عرَّافة. أما أنا، فللوقوف على سببِ اختلافي عن الآخرين أخذتُ سبيلا آخر: أدمنتُ قراءة كتبِ التحليل النفسي والطب العقلي.

أما الطبيبان فقد اختلفا في سبب مرضي وتفسيره إلى أن أشفقتُ عليهما:

ردَّ أحدهما عِلَّة دائي لأصلٍ عُضوي، فيما أرجعَها الآخر إلى سبب نفسِي. أن يكونَ مصدَرُ دائي عضويا، فذلك أمرٌ يشهدُ عليه، حسب الطبيب، إتلافٌ في حجم ذرَّةٍ أصابَ قسما من خلايَا دمَاغي، وخللٌ دوريٌّ يصيب القسم الآخر... وفيما كان الإثنان يتجَادلان بشأني هوى عليهما الثالث بحجَّةٍ كالصاعقة. قال: إنّ المرض العقلي لا يُوجد إلا في ذهن الطبيبِ الذي ينطق به. ثم أضَاف أن الأسوياء كلهم مرضى، وأنهم لا يعتبرونَ المرء مريضا إلا لعجزهِم عن ترجمة معايير السّواية في سلوكاتهم اليومية بالإتقان الذي يترجمُها به من يسمونه مريضا. احتدَّ النقاش بين الثلاثة. خشيتُ أن تأخذ الخصومة منعطفا خطيرا فينتهي بهم الأمر إلى الانقلاب عليَّ، ولذلك انسللتُ من العيادة في هدوء، وأطلقتُ ساقي للريح باحثا عنِّي...

ما بلَّلَ الفقيهُ قلمه بالصمغ وأخذ يخط نقط التنبؤ بالغيب وحروفه حتى استجاب رأسي لحركته بوَحْي ما ألِفتُ مثله من قبل: فقد بدا لي المقام مقام نبوة، وَوَجَدتُنِي رسولا نزل عليه وحيٌ أمِرَ بتبليغه، ورأيتُ الفقيه ومن كان يحيط به من نِسوَة وأطفَال أتباعا ينتظرون أن أتلفّظ بمواعظي ونبوءاتي... لُكْتُ أصواتا كثيرة مليا قبل إلقائها، لكنني لحظة اختيَار الكلمات المناسبة لإطلاقها ألفيتنِي محاصَرا بعيُون الحضور ونظراتِ الفقيه. كنتُ سأصرخ في وُجوه الحاضرين:

«يَا معشر المريدين! بلِّغوا عنه أنه ليسَ مريضا ولا مسحورا ولا ممسُوسا ولا مجنونا. إنما هو رسول نزل عليه وحْيٌ، لكن تعذرت عليه طَريقة تبليغه!»

إلا أن ثقل الخجل الذي كان سيهوى عليَّ - إن واجَه أولئك القَوم كلماتي بالضَّحك السَّاخر - جعلني أحتمي بالصَّمت الرهيب، فقعدتُ بجانب الفقيه، ملفوفا وسط سحابة من الغبن والخَجَل، أتأمَّل حركات يديه وأتابع هَمْهَمَاتِهِ وغَمْغَمَاتِهِ وأنا أقول في قرارة نفسي:

«ألا ما أحوَجنا جميعا إلى الشفقة! ألا مَا أحوجنا إلى الشفقة!»...

في حين زعمت العرافة أنني قد كسَّرتُ رجْلَ صَبِي من الجنِّ، وأن والدَيه قد انتقما لابنهما بحجبِ عقلي، وأنني سأستعيد عافيتي حالما يعقد أهلي صُلحا مع أب الضَّحية وأمِّه، وذلكَ بأن يعمدوا إلى تقديم قربان، وإقامة ليلة حَضرة. لكن أي شفاء ساقته إلي تلك الليلة! فما أن تحركتْ أوتار الهجهوج وتهاطلتْ دقات الصُّنوج، وتعالت أصوات الفريق مغنية حتى استحوذ عليَّ الإحساس بحنين عَميق إلى شيء لم

أتوصَّل حتى اليوم إلى معرفة ماهُو، لكن يقين وجوده كانَ من القوة بحيث لم تملك عيناي أمامه إلا النّضح بسيل من الدموع. انزويتُ في جانب من حلقة الرَّقص ثم غرقتُ في ترنح حزين لا ينقطع. «على ماذا أبكي الآن؟ أيُّ شيء ضاع مني؟ متى؟ أين؟ كيف؟»، ظللت أتساءلُ بدون انقطاع، لكنْ كلما ألقيتُ سؤالي ارتدَّ إلي بهيأة إحساس الفقدان نفسِه. وأمام أحاسيس العجز والغبن والحزن لم أملك إلا الرَّقصَ. قمتُ، وانهَمكتُ في رقص قوي فرحان لا ينقطع إلى أن تسبب ذلك في عَرقلة لعمليةِ السير تكونت إثرها في الطريق صفوفٌ طويلة من الأوتوبيسَات وسَيارات الأجرة الصغيرة والدَّراجات النارية، فتعالت منبهاتُ الصَّوت بشكل جنوني. وفيما كان أصْحاب تلك المنبهات يعنون بإرسَالها: «افرِغ الطرِيق كي نتمكن من مواصلة السير...» كنتُ أتوهّم المقام مقام احتفال، والسيارات والدراجات لُعَباً أو أجهزة يتوقف أداؤها على سرعتي في الرَّقص أو بطئي فيه، فواصلتُ الرَّقصَ الرَّقصَ والسَّيارات ترسل منبهاتها وترسِلُ... أنا أرقص، ومواكب الألوان والبخور والأطعِمة تتعاقب إلى أن تغيَّرَ إدراكي لجسدي فجأة، فوجدتُني إما كيسَ رملٍ عَلى وشك الانثقاب وتسريب ما بدواخله، أو كائنا زجاجيا شفّافا على وشْك الانكسار والتحوُّل إلى شظايا. لا، لستُ كيسا، ولا رملا، ولا زجاجا، ولا يحزنون! أنا الآن حيوانٌ متوحش بصدد الترويض. نعمْ، كنتُم تحاولون ترويضي. ولذلك أمسكتُ إحدى الآلات الموسِيقية وانخرطتُ في تهشيم رؤوس المتحلقين حولي إلى أن كان ما كانَ.

- ماذا كان؟
- ليس شأنكمْ.

وأما كتب التّحليل النفسي، فكانت كلها توجِّه إلي كلاما واحدا لفرط تكراره انتهيتُ إلى حفظه، ولذلك فأنا لا أجد أي صُعوبة في استظهاره كأنني حفظتُه عن ظهر قلب. كانت كلها تتوجه إلي قَائلة:

«ما أنت في نهاية المطاف سوى فرد لم يَرُقْكَ ما يحيط بك من قيم وعلاقات، يئستَ أحيانا من تغييرها، فألقيتَ أو ألقِيَ على عقلك ستارٌ حاجبا عقلك عن الأسوياء. أنت تستمر في التفكير، وتزاول باقي وظائف الجسد من أكل، ونوم، وبصق، وضحك، وبكاء، وما إلى ذلك. لكن تفكيرك يختلف عن تفكير الأسوياء. كل شيء يتم عندك كأنك تبثتَ رأسَك في موجة مختلفة تقعُ على الضفة الأخرى من موجة الأسوياء. وفعل التثبيت هذا كلمة يبدو أنك توجِّه من خلالها الكلمةَ التالية لمن يعتبرون أنفسهم أسوياء: "ما هكذا يجبُ أن يكون الإنسانُ، بل هكذا! لا يجب أن يكون الإنسان على ما أنتم عليه، بل ينبغي أن يكون ما أنا عليه!"، وبذلك فأنت تضع المجتمع بكامله في أزمة: أنت تتكلم لغة لا يفهمها الآخرون، لكنها تظل مع ذلك لغة ورغبة في التواصل إن لم تكن تواصلا بالفعل، غير أنه من "الغرابة" بحيث لا تستجيب له أذهان الآخرين إلا بالتعطل، لأنك تتكلم بلغة مستحيلة. والمعاني التي نتوصل إليها نحن، معشر المحللين النفسانيين، بعد تفكيك خطابك بشفرات خاصة تبرز الطاقة الهائلة التي تملكها لترميز عالمك وتمجيزه وتأثيثه بالمزخرف والمزركش من الاستعارات. وعليه فأنت هو الأدب وقد بلغ الكمال، لكنك لا ترتبط مع المتلقي بأي ضرب من أضرب

المواثيق التي يرتبط بها الأدباء الأسوياء مع قرائهم الأسوياء. وبكلمةٍ واحدةٍ، أنت هو الكتابة بالفعل. أنت هو الرمزُ والاستعارة والمجاز وقد تحولوا إلى جسد من لحم وعظم ودم. أنتَ بين البشر حجرٌ يتألم ويتكلّم ».

عندما حاولتُ إيجاد خيط ناظم بين أقوال الأطباء، والفقيه والعرافة، وكتب التحليل النفسِي والطب العقلي، أصَابني دُوارٌ شديدٌ، سمعتُ أصوات انفجاراتٍ مهولة تدوِّي داخل رأسي، علمتُ أن الكلمة جاءت تطلبني بإلحاح:

سأحملُ مِعوَلا وأمتَهنُ حِرْفَةَ هَدَّامٍ للُّغات
سأقتلعُها واحِدَة واحِدَة
وأدَشّنُ لغة الإشَارَات
وافتحُ صُبحَ الجنون السّعيد
ليرقصَ العالم عَلى أهَازيجي الحزينة
بلُمْ بُّمْ بُّمْ.
من الشيزوفرينيا سَأقُدُّ لي أمّا حَنُونا
مَسكونة بالأوهَام
تعيشُ بخوفِ فقداني
البارانويا حبيبة لي وزوجَة
أمَا خافَ أحدُهُم مِن خِيَانة زوجته؟!
بلُمْ بُّمْ بُّمْ.
هِي ذِي لغتي مُنذ الآن
تنفجرُ قنابلَ مسيلة للسَان والحنجرهْ

تقيؤكم مَعَاجمكم وتفرغكم عُقولكم
هُنَاكَ
في الجانبِ الآخر من الطريق
يتفيأ الغولُ ظِلال شَجَرَة وهمية
ما أحلى عينيه! واحِدَة مَفتوحَة وأخرى مُغمَضَة
واحدة شاخصة في الأرض، وأخرى في السَّماء
بْلُمْ بُّمْ بُّمْ...

لم أدر كيف انجرفتُ ولا من جَرَفَني إلى هذه الزاوية من الحياة (أو النّمط الوجودي ضمن أنماط أخرى كما يقال؟). فقد شُلَّ جَسدي وتقلَّص مَركزُ الحياة في عقلي. صار عقلي مَهبطا للوَحي. أكتبُ أشياء كَثيرة جدا، لكنني لا أبدأ ما أكتبه إلا لأرجئ إنهاءه إلى موعد غير مُحدّد استنادا إلى قاعدة خادعة لم أدرِ مَنْ زَرَعَ فيَّ يقينها المزعوم: «سأخصص، في المستَقبل، ثلاث سنوات بكاملها لإعادة النظر في هذه النّصوص ومراجعتها ثم إرسالها للنّشر»...

تنطُّ الأفكار في ذِهني كالضفادع فيحلو لي كثيرا تأمُّلُها والإنصاتُ إليها. يغمرني يقين أن هَذه الأفكار فريدة من نوعها وأن فيها ما من شأنِه أنْ يقدم خدمة كبرى للبشرية جمعاء ويساهم في القفز بحضارتنا بَعيدا جدّا. لكن، من كبَّلَ يديَّ حتى لا أكتُبها؟

قالَ نيتشه يوما في قلق فرحان:

«لا نستطيع أن نكتب إلا جالسين. لكني سأصمد واقفا هنا. أنا عَدَمِيٌّ! والمكوث في وضع الجلوس هو الخطيئة ضد الفكر

الخالص، ذلك أن الأفكار التي تأتيكم وأنتم سائرون هي وحدها التي تعتبر ذات قيمة».

كما قال:

«لستُ أكتبُ باليد فقط، قدمي تريد دائما أن تكون طرفا في الكتابة».

فهل معنى ذلك أنني صِرْتُ فيلسوفا؟ ربما، لكن ما أصل هذا التبعثر الذي يلُفُّنِي الآن؟ أأنا الذي شننتُ الحرب على النظام أم أن الفوضى هي التي شنَّت الحرب علي؟ في إحدَى الليالي استجمَعتُ كل قواي وتأهبتُ تأهبا صارما للقبض على كلِّ فكرة تعبر بذهني. كلَّفني ذلك سهر الليلة بكاملها، وتنقلا كثيرا بين المكتبِ والفراش وإيقادا وإطفاء مُستمرين لمصباح الإنارة. عندما أستلقي فوقَ السَّرير، ويسُودُ الغرفة ظلامٌ مطبقٌ، تنقطع له اليدان، تهاجمني الأفكار كوحوش ضارية، لكن مَا أجلس وأمسِك القلم بين أصابعي حتّى يتحوَّل ذهني إلى سماء صَافية، فأجدُني قابعا أتأمل بمنتهى الغباوة بيَاض الصفحة أمامي. أسخرُ من نفسي فأعُود لأستلقي على الفراش...

وقبيلَ أن يتمكن النوم مني كان كلُّ مَا كتبته لا يتعدى الصفحَة التالية:

«فلنفتح ثقوب رأسنا لمجاري الهواء، ولنشرع عقلنا لهدير الموج وحنين الريح.

مداراتُ الفكر تحتضر، وغاباتُ الأحاسيس تنتشرُ، ووهاد القلبِ تنكسرُ. قيامة من لا قيامة له، وعقل من لا عقل له.

وهادُ القلب تضطربْ،

هذي القصيدة تنكتبْ،
أمواجُ حُزْن تنتحبْ،
تدنو منيّ وتقتربْ،
ثم تغفو وتنسحبْ،
وتلتهبْ وتنسكبْ،
أخطاءُ قتل ترتكِبْ،
فتنقلبْ وتنعطبْ،
فلا تقول أنعطبْ،
ولا تقول أنتحبْ،
ولا تقول أنسَحِبْ،
بُلُم بُبُمْ بُلُمْ ببُمْ،
بُلُمْ بُبُمْ لُمُمْ بُبُبْ،
مُتَفعِلُنْ مُتَفْعِلُنْ،
كَفى كَفى، ثمَّ كَفى،
مُتَفْعِلُنْ مفتعِلُنْ،
طرَّقْ طَطَقْ طْرَّقْ ططَقْ.

من اعتقد أن هذا رجزٌ أو رملٌ أوسعته لكما وركلا. فما هذه الأصواتُ إلا وقع كاعب العاهرة التي أقعدتني قبل قليل كي أدوِّنَ هذا الوحي. أدوِّنه بمعنى أجعله دُون ما هو في الحقيقة، يُدنى منه دون أن يُدنى عليه ولا تحته أو فوقه. تفضلي يا سِتّ فكرة. مرحبا بك. افسحوا لي الطريق فنحن مارٌّ. أما استحييتِ؟!

أحسبتني فقدتُ عقلي؟ كلا! استقبلتك سابقا ودوَّنتك في الكتاب. فانصرفي. إلى اللقاء يا سيدتي الفكرة. إلى اللقاء».

ما أنهيتُ قراءة الصفحة في الصَّباح حتى انتابتني رغبة القيءِ لفرط تفاهتِها. ولذلك مزقتها دون أدنى تردد. لكنْ في اليوم الموالي، اعتراني ندمٌ كبير خشية أن يكون ما أتلفتُهُ يتضمَّنُ وحيا يهمُّ مَصيرَ البشرية جمعاءَ، وبالتالي أتسبَّبَ في كارثة عظمى، خاصَّة وأني قبل أن أكتب ما كتبته كنت استقبلت كائناتٍ سماوية نزلت خصيصا للتفاوض معِي في شأن جَدوى وجود الإنسان الحالي وما إذا كان من الضَّروري أن يبقى أمْ لا ضمن لائحَة هذه المخلوقات والموجودات التي تتفنَّنُ في أداء عروض مسرحية ما يسمى بالحياة، فقضينا سَاعات طويلة في نقاشات عَسيرة لتقييم حصيلة ما فَعَلَهُ هذا المخلوق مُنذ ظهُوره إلى اليَوم، وانتهينا إلى أنَّ صَلاحيتُه قد انتهت مُنذُ مُدَّة، فصَارَ مُؤذيا ضَارا وسَامّا، وكنا على وشك إطلاق رَجاءً مِمَّنْ يَتوفَّر عَلَيه أنْ يُعجِّلَ فَورا بالتَّخلّص مِنْهُ لولا اختلافنا حول بعض مفردات ذلك النداء، فاكتفينا بالاتفاق على ضرورة تشطيبه نهائيا حفاظا على نقاء الأنواعِ ونظافة الأرضِ؟؟؟. وذلك لسببين:

الأولُ:كونُ هذا الإنسان أغمضَ عينيه أمَامَ الأسئلة الكُبرى التي كانتْ تلح عليه مُنذ البداية: أسئلة الموتِ، والمرض، والجنون، والجنس، وجدْوى الحياة، ومعناها...، متصرفا كأن الأمر يتعلق بقضايا محسُومة، ثمَّ انْهَمَكَ في العيش ضمن نمطٍ وُجودي لم يتفق عليه الجميع، وراحَ يعبث في الأرض، فاقتصَّ من الغابة الكبرى - التي كانت الأرضُ إياها - مِساحات، أقصى منها إخواننا الأوائل: الفيلة، وبنات

عرسٍ، والثعابين، والأسُود، والنمور، والذئاب، وبنات آوى، والتماسيح، وما إلى ذلك.، ثم أسماهَا مُدُنا، فتحصَّن بداخلها ورَاحَ يتناكحُ فيها، ويتوالد، ويقتتلُ حاسبا أنه مركز الكون.

والثاني: كونُ هذا الإنسان نفسه، خلافا لما يُوهِمُ به من أنه قد خطا خَطوات عملاقة في مجال التحضُّر والبناء والاختراع، لم يبلغ - في الحقيقة - إلى الوقت الرَّاهن حتى مقدار عُشُر عُشُر عُشُر عُشُرٍ مما كان بوُسعه أن يصلَ إليه داخل هذا النمط الوجودي نفسه لو لم يصرف الأزمنةَ في النوم العميق. نعم، كلكم نُوَمٌ. وحدي اليقظان بينكم. مرَضي هُو ثمن يقظتي. والدليل على نومكم كونكم لم تخرجُوا من النظام الشمْسي بعد، ولم تتحَققوا بعد مما إذا كانت هذه الحياة هي الوَحيدة أم أن هناك حَيَوَاتٍ أخرى في مجرَّاتٍ أخرى، ولم تتغلبوا بعد على لائحة طويلة من الأمراض الفتّاكة التي تتربصُ بكم، وما إلى ذلك. وباختصار، إن ما قام به الإنسانُ وإن كانَ يبدو مسيرة عملاقة، فإنه في الحقيقة لا يعدُو مجرد حركاتٍ وأفعال بَسيطة لا يتطلبُ إنجازها أكثر من رُبع ثانية من منظور آخر وإحساس آخر بالزَّمن، وبالتالي فبدلا من إبْداء مشاعر الإعجاب والتقدير إزاء الإنسان الحالي، يجبُ معاملته معاملةَ الأسْتاذ القاسي للتلميذ الكسُول، يجب أن يُجْذَبَ بقوةٍ من الأذنين ويُصْفَعَ وهو يُعَنَّفُ بالقول: «أهذا كل ما وصلتَ إليه؟! أهذا كل ما اخترعتَه منذ عشرات آلاف السنين؟! ألم تتجاوز العصر الحديدي بعد؟». وأخبِرُكُم منذ الآن أنّ ذلك ما ستفعله بكم الحيوانات. إن أسراب اليمام، ومواكب السِّبَاع والضِّبَاع، والفيلة، والقردة، وبنات عرس وآوى لا مَحَالَة آتية. زاحفة على مدنكم. لقد أرسَلَتْنِي إليكم في

مُهمَّة استطلاعية. وَفَوْرَ انتصارها عليكم ستقلدني الحكم، وأصير مَلِكاً أو أَمِيرا. لذا، فعليكم من الآن فَصَادِعا (لا صاعدا أو نازلا، فقد فقدتُ الإحساس بالجهات الأربع) أن تكفوا عَن مناداتي ب «أحمد» أو «محمد» أو «يوسُف» أو «عيسى»، أو «يعقوب». نادوني ب «مولانا الملك» أو «مولانا الأمير». لكن، أيَليق بي أن أصيرَ جَاسوسا للحيوانات؟ بلْ أجاسوس أنا أم قنبلة على وشك الانفجار؟

فتحتُ نقاشا في المَوْضوع، ولكن في اللحظة الحاسمة التي كنتُ سأعرفُ فيها اسم الشّخص الذي أوقعني في فخّ ليلة البارحة أيقظني صراخ أمي وإخوتي من حولي. كانوا كلهم محيطينَ بي وهم يبكون لأنّهم سمعوني أتشاجرُ وحدي وكأنني صرتُ شخصين ولم أعُدْ واحدا.

عندما نفضتُ يدي من تلك الحيلة غمرني يقينٌ أتاني من عمق الزّمن القادم بأن البشرية جمعاء لم تخرج من طور الفطريات بعدُ مَادامتْ لم تفلح في تسْوية هذا المشكل ضمْنَ مشاكل أخرى عديدة. لماذا لم يفكر العلماء في اختراع جهاز يتولى التقَاط الأفكار من ذهن المرءِ وتسْجيلها فنستغني بذلك عن حرب الكتابة هذه؟ لقد تخيَّلتُ شكل هذا الجهاز وفكَّرْتُ في اقتراحه ضمن نص لم أكمل كتابته بعد. وفيما يلِي التصوّر الذي وضعته للآلة المذكورة:

«الشكل: جهاز بشكل قبعة، في حجم نصف كرة قدم، يوضع على الرأس. في الحد الأسفل من الجانب الأيمن للجهاز توجد شبه علبة توضع فيها أشرطة التسجيل التي حالما يفكر المرء تشرَعُ في التقاط الأفكار دون حاجة إلى الضغط على زر أو التزود ببطاريات لأن الجهاز يستمد طاقة اشتغاله من حرارة جسم

الإنسان نفسه. وطولُ شريط التسجيل الواحد كبيرٌ جدا بحيث غالبا ما يموتُ الفردُ دون أن يستنفذ شريطين.

طريقة الاستعمال أو استعادة الأفكار المسجلة: يُنْزَعُ الشريط المسجل (وعند نزع هذا الأخير يواصل الشريط الثاني مهمة التسجيل لكي لا تتوقف عملية الرصد والتسجيل أبدا)، ثم يوضع في جهاز خاص مثل حاسوبٍ، ويضغط على الزر المخصص لموضوع الأفكار المراد استعادتها لتظهر مكتوبة على الشاشة.

وفي مرحلة متطورة من تاريخ هذا الجهاز سيصير من الممكن تشخيص الأفكار على شكل شريط سينمائي. هكذا، فإذا فكرتِ، مثلا، في قتل شخصٍ ما فعملية القتل ستظهر كما تمنيتِها، كما لو كانت حصلت فعلا. ستظهر صورتك على الشاشة وأنتِ تَقْتُلِينَ غريمك...

محاسن الجهاز: كثيرة جدا وعلى رأسها تخليص الإنسان من حرب الكتابة.

مساوئ الجهاز: ستعمد حكومات كثيرة إلى إلزام جميع مواطنيها بحمله، حيث ستلتزم بتحمل مصاريف الإنتاج والتوزيع المجانيَّيْنِ. وستصاغ فصولٌ شبيهة بقوانين حمو رابي، تقول، مثلا:

«إن يفكر شخص في كذا أو يعتقد كذا؛
ولو خطأ، يُعَاقَب بكذا طبقا لكذا؛

إن يغتصب شخص امرأة في الخيال، دون رغبتها أو استئذانها يعاقب بكذا طبقا لكذا»...

أنا الآن موقنٌ بأنَّ الأصل في مرضي لا يعود إلى عطبٍ في الدماغ، ولا إلى جِنٍّ أو سِحْر أو وَحْيٍ، وإنما يرجع إلى غياب هذا الجهاز. لو كان الإنسان قد اهتدى إليه من قبل لما مَرِضْتُ، بل ولكان المسؤُولون عَن مرضي قد وُضِعُوا ورَاءَ القضبان منذ سنين طويلة، لأنهم بمجرَّد ما كانوا سيفكرُونَ في تمريضي كان سَيُفْطَنُ إليهم ويُعمَدُ إلى إحباط مخطَّطَاتهم بتقديمهم إلى العدَالة. ألا ترون الأمر كذلك؟

بيد أن ما من أحدٍ اقترحتُ عليه هذه الفكرة إلا ونظرَ إليَّ بازدراء ممزوج بالشفقة. أمّا الطبيب، فكانَ جَوابُه بعد الإنصات:

«ولماذا لا تصنعهَا أنت؟! مَاذا تنتظر؟!»، ثمَّ مَلأ وصفة الدَّواء بلائحةٍ أطول من المعتاد...

ضَوضَاء التَّمَثُّلاَت

لِفَرْطِ ما انغرسَتْ قدَمَايَ في وحَل الجنون صَار حديثي مَع الآخرينَ صعبا جدا ما لم يكن مُستحيلا، وذلكَ لا لكون ما أريدُ تبليغه غَيرُ واضح في ذهني، وإنما فقَط لأنَّ قناة اللغة صَارَت غير مُتسعَةٍ بما فيه الكفَاية لنقل ما أجهد نفسي عبثا في محاولة إيصَاله عَبرها إلى الآخرينَ...

أمجنونٌ أنا أم متصوف؟ لقد قال المتصوفة منْ قبلي شيئا مثل هذا خِلال حديثهم عن الإشرَاق، والاتحاد، والحلول... هل أمرٌّ من التجربة نفسها؟ شَيْء من هذا يُوجَد دُونَ شكّ، لكنني لا أعتقدُ أني مُتصَوِّفٌ، لأنَّ التجلي الذي يأخذه اضطرابي الدَّاخلي في سُلوكاتي الخارجية يجعلني أقرَب إلى المجانين المتسكعين في الطّرقات والشوَارِع مني إلى رجَال الدِّين والمتصوِّفة. لكن مَا أدرَانِي؟ فقدْ أكونُ صرتُ متصوفا دُون أن أعلم بذلك، وقد يكون اتّساع المسَافة الزمنيَّة الفاصِلة بيني وبين أزمنة الزُّهد والاختلاءِ بالنفس ومَا يستتبعُها مِن انقلاب في الضَّوابط والقيم هُو الذي أقرَّ في ذهني التصَاق علامة الجنون بجسَدي بدَل علامة الماوراء...

سأردِمُ الهوة الفاصلةَ بيني وبينَ أقطاب الصُّوفية بحيث أجدُني متصوفا عندما ألتحقُ بهم، من خِلال عَملية الزَّحف التقدُّمي نحوي،

وأجدُهُم مجانين من خِلال عملية التقهقر الآتي نحوهم. إن يتعذَّر هذا أو ذاك أركُنْ إلى هويتي الصَّلبة في انتظار أن يُسْعِفَنِي الذهن في الخرُوج من قعرِ هذه البئر التي لا أدري منذ متى وأنا قابعٌ فيهَا:

«لقد نزلَ عليَّ وحيٌ تعذّرَت عليَّ طريقة تبليغه!»

لكن مَا هذه العلامة للاتجاه الممنوعِ المنتَصبة أمامي مجبرة إيايَ على التراجع إلى الوراء؟

*

*　　*

لاشكَّ أنَّ شيئا ما في حياتي قد أصِيب بعطبٍ، فأصبحتُ نسيجا لم يُسَلّ منه سِوَى خيطٍ واحد ومع ذلك تحوَّلَ إلى غلالة مهترئة. نعم، لقد تعطلت حياتي إثر فقدانِ خيط واحد فآل باقيها بمجموعِه إلى مجرَّد رحلة بحث عن الخيط المفقود.

من أينَ كانت البداية؟ أمن عيادة الطبيب أمْ من بيت الفقيه؟ أمِن نُزول الكائنات السَّماوية عليَّ أم من محاولتي تقليد مَا لا يُقَلَّد؟ أمِنْ غرقي في طوفَان الفكر أم من فشلي في وضْع حد لحياتي؟... قدْ يكون الأمر كذلك وقد لا يكون. لكنْ، من أوقعني في شِرْكِ هذا الصَّباح الذي أعياني إشراقه وتصلُّبُه في مُزَاحَمة المساء؟

لقد سُلَّ مني المساءُ وتحوَّلَ الزمن في تمثُّلي إلى صباح مُطلق يقع في الخامسة منْ عمري، وبالضبط في مطلع فجر يوم عيدٍ ديني عندما رنَّ في أذني صوتُ إيقاظ أمي إياي كجرس حُلو. وجَدْتُ أفراد أسرَتي

كلهم مجتمعين حول مائدة زُيِّنَتْ صفحتها بفسَيفسَاء من الحلوياتِ والمشرُوباتِ والأرغفة. قلتُ: «يا له من صبح سعيد!»، لكن مَا تهيّأتُ للاستمتاع بتلك السَّعادة حتَّى حَاصَرني وجهُ أمِّي في الخيال وهي جثة هامدة ملفوفة في قطعة كتان أبيض، محمولة إلى المقبرة... نعم. لقد أفلتتْ من قبضتي سُلطة تحجيم الزمن وتقطيعه وفقَ المقاييس التي تواضعَ عليها الآخرون، وشُدَّ عقلي إلى نقطة الخمسة. لا يتجاوزُ عمري الآن خمس سنوات. لقد وُلِدْتُ كهلا، وبتوالي الأعْوام أصغرُ، ولذلك فسَوف يأتي يومٌ أحبو فيه حتى إذا بلغتُ أشُدِّي بدأتُ الرضاعة. فكيف أستعيدُ الأعوام التي أوصلتني إلى المحطة الحالية قبل أن تنسحب؟ بلْ وهل انصرفتْ حقا؟ إلى أين؟ متى؟ كيفَ؟...

كانت السَّاعة تشير إلى العاشرة والنصف صَباحا عندما وصلتُ إلى الحي الذي كنا نسْكن فيه. لازلتُ أذكر ذلك جيدا. كنتُ ساعتها أتأبط كتاب جغرافيا ودفتر فيزياء غِلافه أحمر اللون، وكنتُ قضيتُ ساعتين في الدراسة بالثانوية.. عندما رفعتُ رأسي نحو العِمَارة كان أوَّل ما فاجَأني هُو انفتاح كل نوافذها، فقلتُ: «ياله من صُبح سعيد!»... أثناء صُعودي الدرج أثارني صوتُ موسيقى كان يخرج منْ باب شقة إحْدى الجارات التي لم يخطر ببالي في أي يوم مِن الأيام حتى مجرَّد مدِّ يدي إليها لمصافحتها، فأحرى الدُّخول إلى بيتها. إلا أنَّ قوة ما كانت تجذبني في تلكَ اللحظة إلى الموسيقى، فدخلتُ منزل الجارة دُونَ طرق بابٍ ولا استئذان أو سبق إعلام. اهتديتُ بسُهولةٍ إلى الغرفة التي كان يوجدُ فيها الجهاز. أغلقتُ الباب خلفي وجلستُ أستمع... ها أنا الآن جالسٌ في بيت الجارة أستمع. عندما يرتفع الصوتُ أحِسُّ أنَّ الموسيقى

تهاجمني كأسرابٍ منَ الوُحُوشِ المفترسَة. تتسَرَّبُ إلى جسَدِي من أذني بعُنف شديد وتأخذ في الدوران. تدورُ، وتدورُ، وتدورُ. تتجولُ بسُرعة مذهلة في كافة أقاليم جسَدي. تدخلُ من الأذن مُصَعِّدَةً تدفقها تارة في مجاري الدَّم، وتارة في أنابيب الأمعاء، فتحيلني إلى مُومياء، فرَاغ، مُطلق، عَدَم، قطعة مُوسيقى، دُولاب كبير وسط جهَاز الأوركيسترا الأكبر... وعندَما تتوقف، يغمُرُ الرَّأس صُداعٌ ودُوَارٌ. كأن رأسي يرتج تحت ضرْبات مطرقة صلبة تهوى عليه. صداعٌ ودوارٌ لا ينقطعان.

على مَقربة من اليومِ الأربعين أطللتُ على مَشارف الوَحي فنطقتُ. تكلمتُ بكلامٍ نوراني مشرقٍ في حُضور كائناتٍ نزلت عليَّ خِصِّيصا منْ كواكب أخرى لتتفاوض معي بشأن الصِّيغة الجديدة لإعادة تشكيل الكَون: المواقع التي يجبُ إعطاؤها للشَّمس والقمَر، الكواكب والمجرَّات التي يتعينُ أن تُحذَف، والكائناتِ الجديدة التي يجب أن تخلق، والحسْم فيما إذا كان من الضَّرُوري الإبقاء عَلى الكائن البشري في النظام الكوني الجدِيد أم لا... استيقظ أخي مَرعُوبا. قفز من فِراشه متجها نحو الغرفة المجاورة حيث كانَ والِديَّ نائمين، لكن قدميه تعثرتا على أهدَاب الغطاء فسقط. تكسَّرت أسنانه. تحولتْ صَفحة الغرفة إلى لوحةٍ من الدِّماء السَّيالة... في الصباح الباكر أمسكتني أمي من يدي وقالتْ وهي تبكي: «تعال معي يا ولدي فقد مرضتَ!»، ثم اتجهتْ بي صوبَ فقيه لم أفهم ما مَعنى أن يمتثل بي أمامه ولا نوعية الرَّابط الذي يمكنُ أن يوجد، أو المفترض أنّه موجُود، بيني وبين جمهرة زائريه من نِسوة وأطفال وصبيان. أردت أن أخبره بحقيقة أمْري، فأقولُ له: «ياسيدي! إنه لا يَشكو من مَرض ولا جنون

أو سحر. إن هو إلا رسولٌ تلقَّى وحيا تعذَّرَتْ عليه سُبلُ تبليغه...»، لكن ثقل حجم الخجَل الذي كان سيهوى عليَّ لو ضحك الفقيه وزُواره من قولتي هَذه جَعلني أفضِّلُ الاستسلاَم والاحتماء بالصَّمت الرَّهِيب...

عندما رَخَّصَ لي الطبيبُ بمغادرة مُستشفى الأمرَاض العقلية شدَّدَ على ضرورة التزامي بالتناول المنتظم لوصفة دواءٍ تتكونُ من عقاقير ثلاثة لم أعد أذكر أسماءها. لكنني لاحظت أنني بقدر ما كنتُ ألتزمُ بنصيحة الطبيب كان وَحْيِي يزداد انتظاما، ومُطلَقِي اتساعا، وتمثُّلاتي حِربَائية. فعندما أتناولُ الأدوية يوحَى إليَّ أن أتأبط مِذياعا وأخرُج للتجول في الطبيعة، فما أصل إلى الحديقة العُمومية حتى أجدَ نفسي أتفسَّحُ في رحَاب الجنّة. انعكاسُ خضرة الأعشاب على عيني، وتَصَادُعُ (لا تَصَاعُدُ) رَهَافة إحسَاسي بتعدُّد ألوان الأزهَار، وهُدُوء الناس، ووَداعتهم، كلُّ ذلك يجعلني نسيما عَطرة هادئة تهبُّ في صباح مُطلق يقعُ في الخامسة من عمري، وبالضبط في مطلع فجر يوم عيدٍ ديني عندما رنَّ في أذني صوتُ إيقاظ أمِّي إياي كجرس حلو.... يا لرعب هذا الصَّباح المطلق! خلصوني من رُعب هذا الهدوء بوضع مُكَبِّرَي صوتٍ بحجْم جزيرتين: أحدهما في القطب الشَّمالي والآخر في القطب الجنوبي، ثمَّ أحيلوا الحياة إلى أغنية صاخبة راقصة. سأخلع جثتي وأوزعها على الفنّانين والمبدعين قاطبة كي أجنبهم عَنَاء البحث عن المطلق. فهلاّ أعطوني ضَجيج عَالمهم واضطرَابَاته؟!

*

*   *

اتخذتُ اليوم قَرارا لارجعة فيه. من الآن فصَادِعا سأقطع صلتي بالصَّيدلياتِ، والعُلب، والقنينَات، والحقن. لن أتناولَ دَواءً بعد اليوم. لارْݣَاكتِيلُ Largactil تهوى عليَّ بأكياس ضخمة من النوم، والهالدُول Haldol تزيّن مشاهد الخارج في عيني، والأرْطَان Artane تهدئني فتُحوّلِني إلى مُرَكَّبٍ من هِرّ وديع وكائن لم يُخلَق بعد، كائن مُبَرْمَجٌ لنهاية القرن المليار بالتقويم الضوئيِّ. أتوهَّم الحديقة جنة، والنّاس ملائكة، والمزابل لوحَاتٍ جميلة الألوان عطرة الرَّوائح. ولحظة استمَاعي إلى الموسيقى، بعدَ تناول الأدوية، أحسُّ بأنها تخرج من جسَدي ولا تعبرُ إلى أذني من الخَارج على شكلِ ذبذبات صوتية. وبقدْر ما يفتنني هذا الإحساسُ الذهولي يخيّم على من يحيطونَ بي اشمئزاز وقلق شديدان. متى اشتغل جهازُ مُوسيقى لم أستطع مُلازمة مكاني. أنهض وآخذ في الرَّقص بحركاتٍ بهلوانية لا تنقطعُ لأن الكون بكامله يتحول في تمثلِي إلى أوركيسترا فيما أتحوَّل إلى مجرد جهاز فيها...

لقد حدثَ ذات مرة خللٌ في تمثلي هذا لسبب لازلتُ أجهله لحد السَّاعة، فقصدتُ مفترق طرق وأنا أدفع عربةً، صُدِّعتُ فوقها وأخذت أرقص دونَ توقف إلى أن تسبب ذلك في عرقلة لعمَلية السير تكوَّن على إثرها، في الطريق، طابورٌ من الحافلات، والشاحنات، والسيارات، والدراجات النارية، والهوائية. تعالت منبهات الصَّوت بشكل جنُوني. نفخ في الصُّور. هو ذا يوم القيامة! إلا أنه فيما كانَ أصحاب تلك المنبّهات يعنونَ بإرسالها: «افرغ الطريق كي نتمكّنَ من مُواصلة السير...»

كنتُ أتوهَّمُ المقام مقام احتفال، والسَّيارات والدراجات لُعَباً أو أجهزة يتوقف أداؤها على سرعتي في الرَّقص أو بطئي فيه، ولذلك واصلتُ الرقصَ الرَّقص تاركا السيارات ترسِلُ منبهاتها وترسِلُ...

وذات مرة عُدتُ إلى البيت مفزوعا وأنا أطلب النَّجدة لأن قدميّ تحولتا في تمثُّلي إلى تمسَاحين: «أعباد الله! خلّصوني من هذين التمساحين!»، كنت أصرخ مُستنجدا فيما اكتفى أفراد أسْرتي بالتحلق حولي وهُم يلحون عليَّ بالسؤال المستغرب: «أيُّ تمسَاحين؟! أيُّ تمسَاحين؟! أينَ هُمَا؟! أينَ هما؟!»...

وفي مرَّة أخرى، استقيظتُ صَباحا فما نظرتُ وجهي في المرآة حتى خُيّل إلي أن شعْر رأسي لم يكن إلا فَرْوَ ذئبٍ أو عجلٍ ألصقهُ بِجُمْجُمَتِي خلسةً أحد العقلاء الذين يتربَّصُون بي، متسللين إلى غرفتي، مختبئينَ في صفحات الكتب، والأقلام، ومنفضَات السَّجائر، وعلب أعواد الثقاب، وما إلى ذلك.. ولذلك أخذتُ أصرخ في وجْه إخوتي ووالدَيَّ: «أتظنون أني من الغبَاوة أو الجنون بحيث تعبثونَ بجسدي وأنا نائم دون أن أفطن إلى ما تفعلون؟! من ألصق هذا الفرو برأسي؟ من ألصَقَ هذا الفرو؟»، وأمام استغرابهم اللا مبالي، أخذتُ أقتلعُ شعري بوحشيةٍ لا تُصَدَّق...

وبالأمس فقط توهَّمْتُ الزقاقَ الضيق الذي يفصلُ منزلنا عن المنزل المقابل صَدْعاً أو انشقاقاً حدثَ في منزلنا، فاستولى عليَّ رعبُ الإحساس بوشك البيت على الانهيار. أخذتُ في الجري والقفز جيئة وذَهابا، فوق الزقاق، من منزلنا إلى المنزل المقابل دون توقف وأنا أطلب النّجدة. ولما التحق بي أبَوَيَّ لتخليصي من تلك الحال، قلت لهما وأنا

أدُسُّ يديَّ في قفازين وهميين: «اركَبوا، فبعد خمس دقائق سنقلع! الحيوانات زاحفةٌ علينا!». لقد خُيِّلَ إلي أنَّ المنزل كان مَركبة فضائية فيما كنتُ رُبَّانها!...

لما أدركتُ أن مَا من مرَّةٍ يقع خلافٌ بيني وبين الآخرين إلا ويكونوا هُم الصائبين وأنا المخطئ لفَّتني غيومٌ من مَشاعر الغبن والخجل، فصرت أتحاشى التّحدث إلى جميع الناس أو مجالستهم بما فيهم حتّى من كانوا أعز أصدقائي سابقا. رَسَخَتِ الفكرةُ التالية في ذهني: إنَّ الناس قاطبة على عِلم بالحرب الشَّعواء الدائرة رحاها في عقلي صَباح مَسَاء. ولذا، فكل لقاء مع أحدِهم لن يكونَ إلا امتحانا لي. قلتُ: «في مَصلحتك أن تتحاشاهم وتتجنب الاختلاط بهم، ولو اقتضى ذلكَ منك صُنع علب وقوارير لحفظ نفايات جسدك»، ثمَّ بذلتُ مجهودا دينصوريا لتحقيق ذلكَ، لكنني لم أن أنجح. آنذاك قلتُ لنفسي: «عليكَ يا أحمد أن تغتنم فرصة اختفائك لتصحِيح صورتهم عنكَ. عليكَ أن تلزم منتهى اليقظة والحذر حتى لا تفلت منك أدنى كلمة أو حَركة يستنتجُ منهَا مُمْتَحِنُكَ أنَّك إنسانٌ غير سويٍّ». ولأتمكن من ذلك، أفردتُ مِلَفّا لكل شخص تربطني به صلةٌ مَّا، دوَّنتُ فيه كلَّ ما أعْرفه عنه. وهكذا صرتُ كلما اضطررتُ للقاء بأحدهم تهيأتُ للمواجهة بقراءة بطاقته، والتدرُّب على القياس الدقيق للمسَافة التي يجب أن تفصل يديَّ ورجليَّ وعينيَّ وأنفي وفمي عن يديه ورجليه وأنفه وفمه، وتثبيتِ لهجة كلامِي ورنة صَوتِي، ونظرتي، وابتسامتي، لأنظرَ إلى عينيه بالطّريقة ذاتها التي شاهدت الآخرين يستعملونها، وأسعلَ كما سمعتهم يسعلون، وأمتعضَ كما رأيتهم يمتعضون، وأصطنعَ الغضب كما

شاهدتهم يَصْطنِعُونَ... وبعدَ ذلك فقط أجالسُه. وفور توديعي إياه أعود إلى الملف نفسه وأدَوِّن فيه الملاحظات التي استخلصتها من ذلك الاجتماع تأهُّبا لأيِّ لقاء قد يضمني وإياه مستقبَلا. إلا أنني سرعان ما اضطررتُ لإحراق تلك الملفات كاملة لأن عَددها تكاثر بحيث صار فضاء غرفتي أضيَق من أن يسعها، وصرتُ لا أجد مسَاحة كافية حَتى للجُلوس، فأحرَى للنوم، فضلا عن أن تلكَ الملفّات حوَّلَت المنزل إلى شبه دائرة للأمن الوَطني أو ملحقة لجهاز المخابرات المركزية، بما تتضمَّنه من معلومَات دقيقة عن قامَات سائر الأشخاص الذين كانتْ تربطني بهم صِلة مَّا، وأوزانهم، وألوان بِشرَتهم، وملابِسهم، وأوقات خرُوجهم من المنازل، ومُؤسَّسَات عَملهم، وهواياتهم، وخصُوماتهم، وأقوالهم، وما إلى ذلك. لكن، أما وسِعتني هَذه الشرطة المرابطة في دَهاليز عقلي وصُروح الكَلمات المتناثرة في أقَاليم لحمك وعظمك؟!

*

*　　　*

«يجبُ عليَّ أن أفكِّرَ وأفكِّرَ حتى أُخرِجَ نَفسِي من هذهِ البِئرِ التي أقبع في قعرها».

هذا هو الخيط الوحيد الذي لازال يُسْعِفني إلى حد ما في الارتباط بالحياة وإلا فأنا أتوقع أن أضع حدا لوجُودِي في أية لحظة، يحثني على ذلك اشتباك خَيطَي الحياة والموت في جسَدي بشكلٍ مُقْعَدٍ... لكن لماذا لم أفعل ذلك؟ بل لماذا لا أقلب المعادلة فأقول:

«يجبُ عليَّ أن أفكِّرَ وأفكِّرَ حتى أتوصَّلَ إلى وضع حدٍّ لحياتي؟». أعتقدُ أن هَذَا الوضع هو قرارة المأزق الذي انزلقت إليه: إنّني، وفي آن واحدٍ، حياة مُستحيلة الموتِ ومَوتٌ مستحيل الحياة. ما الحل؟ انصِتْ إلى المستر نيتشه، فقد قيلَ إنَّ بيدِه الحلّ والعقد. قال:

«إنَّ أحسن شيء في العالم ليسَ بمتناولك. أحسن شيء في العالم هُو أن لا تولَد، أن لا تكون، أن لا تكون أي شيءٍ. ثانيا: الأنسب لك هو أن تموت في أسرعِ وقت».

يالنفس الدَّوامة!، بل أما علمتَ ياسيد نيتشه أن الحلَّ الذي تقترحه عليَّ يفترض مني أن أكون في أحد وضعين اعتباريين:

أ - فإما أكون، مع بقائي سجين شَرْطي الحالي، الشرط البشريِّ، شرط الموجود، معَ بقائي داخل المدار الإنساني، أكون قد أُتِيحَ لي أن أتَنَقَّلَ بين العدم والوجود، وأعقدَ مُقارنة بينهما أخلصُ من خلالها إلى أن الموجودات «تعيش» في وضع «أفضَل» من المعدُومات، وبالتالي فالتحاقي بالعدَم سينقلني إلى وضع أفضل مما أنا عليه الآن. غير أن هذا الوَضع وضعٌ مستحيلٌ بقدر ما هو غير معقول: فعندما أقولُ «الوضع الاعتباري للعَدم أفضل من الوضع الاعتباريِّ للوجود»، أعمدُ إلى إلصاق حُكمٍ بالعدم من خارجه، أقيمُ قطيعة مع هذا العَدَم ثم أحكُمُ عليه بما هُو غريبٌ عنه تماما... أما علمت أن الوضع الاعتباريَّ للعدم هُو وضعُ المحو، وأنه ليس فيه إحسَاسٌ ولا تفكير ولا حُكم ولا لغة؟!

ب - أو أن أكون ليسَ خارج شَرْطي الحالي، شَرط الموجُود أو الشَّرط الإنساني فحسب، بل وكذلك خارج العَدَم، أي في وضعٍ

اعتباريٍّ يقع ما قبل الوُجود والعَدَم معا. وضعٌ يتيحُ لي مُعَاينتهما أو العيش ضمنهما مَعا، مع بقائي مستقلا عنهما أو مُتعاليا عنهما، وبالتالي يُتَاح لي الحكمُ على وُجُودِي بأنه أفضل من عَدم وجودي. لكن هذا الوضع الاعتباري بدوره غير معقول، إذ كيفَ أكون في وضع مُتعال عن الحياة والموتِ معا، وضع يقع فيما وراءهما، ثمَّ أقول إن أحسن شيء في العالم / الحياة هو أن لا أوجَد أو هو أن أمُوت؟ أليسَ الأليقُ بي آنذاك هو أن أقول: «إنَّ أفضل شيء هو أن أظل في معقلي هَذا، معقل الآلهة، غير منشغلٍ بالحياة ولا الموت؟». لكن، هل الله يتكلمُ ويكتب؟ كفَى هذيانا يا أحمد! بل أأحمد أنت أم محمَّد؟ عفوا، عفوا! آهٍ عفوا! إنما أنتما مريضان يَهذيان!

*

*　　*

في زخم اضطرابي الدَّاخلي وعزلتي عن العالم الخارجي تُوَاسِينِي القنَاعة الوديعة التالية: «إن اضطرابي لا يعُودُ إلا لكوني لستُ هنا إلا نتيجة خطأ ارتكبه من لستُ أعرفه، وهو يُؤدِّي ثمنَ زلته الآن بجنوني. فأنا في الأصْل لستُ إنسانا. وكل القرائن تدل علَى ذلك: فما أقف وأخطو بضع خَطوات حتّى ينشطِرَ جسَدِي عمُوديا إلى قِسمين مُتساويين: نصفٌ يخطو بقدمٍ، والنصف الآخرُ يخطو بجُمجمة. قدَمٌ تخطو، وأخرى تفكر. نصفُ الرَّأس يسيُر، ونصفُ الرّئة يعقلُ... والتصاقُ هيأة الجسد بشكلها الحالي يُولّدُ بداخلي قلقا مستمرّا. إنني،

مثلا، مقيَّدٌ بالأكل من الفم والحال أن سُرَّتي وأذني تضَايقَانِي لحظة الأكل بطلباتٍ ملحاحة كيْ أحشوهما لقمات الطعام قائلتين لي:

«هذا هُوَ منفذ العَالم».

هذا من جهة،

ومن جهة أخرى فأنا أقلق كثيرا من كونِي أجدُ نفسي مجبرا على الأكْل فيما لا أرَى لهذه الوظيفة أي معنى. فهِي عبث مادام يمكن اختزالها في نهاية المطافِ إلى مجرَّد محاولة يائسة لابتِلاع عالم خارجي (ماء، فواكه، خضَر، حبوب، أعشاب، وما إلى ذلك) غير قابِل للابتلاع أصلا لكونه يتسرَّب باستمرَار إلى الخارج فيحيلُ العملية إلى مجرَّد دَوَرَان في حلقة مفرغة. إن ذلك يجعل مني مجرَّد حلقة في دورة تحتويني وتتجَاوزني. ثم إن هيأتي الحالية تجبرني على المشي على القدَمين بينما أحتاج أنا، بشكل جِدِّي ومِلحاحٍ، حال تمسكي بالسَّماء، إلى أن أسبحَ في الهواء وأتدحرج - في سيري على الأرض - على ظهري لتظلَّ عيناي في وضع التقابل مع السَّماء، كالأفعى، خاصَّة أنَّ تأملي للأوضاع التي اجتازها الإنسان العاقل منذ فجر وُجوده إلى اليوم، حيث انتقل منَ المشي على أربع قوائم إلى الانتصَاب والسير على قدمين، ذلك التأمُّل أوصلني إلى نبوءة أن الوضع الجسَدي للإنسان المقبل سيكون حتما هُو وضع الانبطاح. اقترابٌ من الزواحف. وضعُ الأفعى إن شئتم. وبهذا المعنى، عندَما أعاني اليوم من كونِي لا أستطيعُ أن أزحفَ كالثعبان إنما أكونُ قد استبقتُ تطوُّرَكم وانتقلتُ مسبقا من بين أحضانكم لأتأصَّلَ في أعمَاق الأزمنة السحيقة القادمة. الأزمنة

التي لن تصِلوا إليها إلا وقد تكلَّسَت عظامُكم وتحوَّلت إلى مَعادن وطبقات حجرية أو جَليدية...

وعينيَّ هاتان اللتان أحْكِمَ إلصاقهما بصفحَة رأسِي «الأمامية» تقيّدان وِجهة امتثال ذهني للانعكاسات الخارجية وتوافيانى بأحْجام مغلوطة لأشياء العالم الخارِجي لأن معادلة:

مهما تكن س إنسانا، فحجم دماغ س = شكل عينيها وموقعهما

تلك المعادلة لم تنجَز بالدقة نفسها التي تم بها إنجاز معادلة:

مهما تكن س قطا، (حجم دماغ س = ي) = (شكل عينيه وموقعهما = ي)

ولذلك يستحوذ عليَّ قلقٌ عميقٌ كلما شاهدتُ قططا تتجوَّلُ في الطرقات أو مُنهمكة في التهام ما بدواخل القمامات....

إني أريد عينا ثالثة لضبطِ الشكل الذي تلتقطُ به هذه الكاميرا المحكمة التثبيت بصفحة رأسي أشياءَ العالم الخارجيِّ. أريد عقلا آخر يُمَكنني من قراءة نصَّين مكتوبين بلغتين مختلفتين، في موْضوعين مختلفين بكَيفية تتيح لي استيعابهما معا، كأن يكونَ النصّ الأوَّل مكتوبا باللغة العَربية والثاني بلغة لاتينية. سيكون ذلكَ أقل إتعابا للعين والذهْن وأكثر اسْتغلالا / اقتصادا للوقت بالإضافة إلى كونه سيتيحُ لي إعَادة توطيد صِلتي بأمِّي الأفعَى من خِلال حَركاتِ عيني اللولبية: فنهاية السَّطر اللاتيني سَتسلم عيني مباشرة إلى بِداية السَّطر العربي، ونهاية هذا الأخير سَتسلمها مباشرة إلى بداية السطر اللاتيني...

لكن رغم انتصابِ هيأتي الجسَدية الحالية حاجزا أمام هذا وذَاك، فقد سَجنتُ نفسي داخل مجهودٍ يومِي لرُؤيَة ما لا يرَاهُ

الآخرون، وسمَاع مَا لا يسمعونه، والإحساس بما لا يحسونَ به، من خلال عيني وأذني هاتين لا غير. وقد تأتَّى لي من ذَلكَ مَا يستحيلُ تدوينه. يلزمني البحرُ مدادا والشَّجَر قرطاسا...

هَكذا، فعندما أكون سائراً في الشَّوارع والطُّرُقات لا أرَى النَّاس قاماتٍ من لحم وعظم أحكمتْ إلفافَ نفسها وسط ما يُدْعَى «ملابس»، بل أراهُم هياكل عظمية تثير الرُّعب والاشمئزاز بما ينتشر في وجوهها من حُفر ويعُمُّ بنيتها من التواءات. وعندَما تدوسُني سيارة أو دراجة فإنّي لا أعتبرُ صادمتي هي قطعة الحديد. أعتبر صادمي هو جزءٌ من جَسَدِ السَّائق الذي يكونُ قد تحوَّلَ إلى حَدِيدٍ: ذلك أن لجسَد الإنسان هيآت وأحجاما تتحوَّل بتحول الأوضاع والمقامات التي يكونُ فيها. فعندما يسوق المرءُ حافلة يتمطّط جسده فتصير حُدُودُ جسم الحافلة هي حُدود بَدنه، وعندما يركبُ دراجة يتقلص جسده فتتضاءل حدوده - مقارنَة بالحافلة - إلى حدُود الدراجة... وعندما أعاشر قِطا يتحولُ جسدي إلى شبه جهَاز تواصل لاسِلْكِي بسبب ما يرسله من ذبذبات وروائح لا يفطن إليها إلا الهرُّ، وإلا فكيف يمكن تفسير مُواء فرحة الاستقبال الذي تخصُّني به قطتي كلما فطنت إلى أنني عُدْتُ إلى البَيت فيما أكون عائدا إليه فعلا، لكن لا زالتْ تفصلني عنه مئات الأمتار؟

أخيرا، فأنا جهازٌ لم يضبط بنفس الطريقة التي ضُبِطَ بها الآخرون. عقلٌ لم يُبَرْمَج كباقي العُقول: فمشيتي المتمايلة التي يعتقد هؤلاء النّاس أنها بسببٍ من السُّكر أو الجنون إنما تعود إلى كوني لا أملكُ تقطيعا للفضَاء (الذي لا تقطيع له أصلا)، ولا إحساسا بوجُود

ما يُسمى بالجهَات الأربع... أنا أعيشُ ضمن نمطٍ وجوديٍّ يُشبِه، على وجه التقريب، حَالَ من اتخذ من مجهر ضُبِط في الأصل لرؤية الأشيَاء الواقعة علَى بعد 10 كيلومترات أو أكثر، نظارتين لمشاهدة الأشيَاء التي لا تبعد عنهُ سوى ببضعة أمتار. تخيلوا ذلك أو ترقبوا أن يحُلَّ بكم مرضٌ عُضَالٌ تمكثونَ على إثره شهرا بكامله طريحي الفراش، مُغمضي العيون، لا يصلكم طعامٌ ولا كلام، ثم تُشْفَوْنَ منه فجأة. تخيَّلُوا ذلكَ، ثم غادِرُوا على الفور مَنازلكم ولاحظوا وقع أشعة نور الشمس علَى صَفَحَاتِ أعينكم وأليافِ أدمِغتكم... افعلوا ذلك، أرجوكُم، لتصدِّقُوا كوني الآن أعيشُ لحظة الانخراط الأول في الطبيعة، غارقا في طوفان الفكر وسَديم الأزمنة، كوني أحسُّ الآن أني ومكتبي هَذا معلقين من الأرجل علَى سقف الأرض، ولذلك فنحن نتوقعُ أن نهوَى على السَّماء في أيِّ لحظةٍ. لذلكَ، ها أنذا عاضٌّ على الطاولة بأسناني، لا أستطيع مغادرتها ولو لمجرد لحظةٍ واحدة...

مَعْجُونُ اللُّغَةِ وَالجَسَد

من دَلَّ الحربَ الدائرة في رأسِي على فراشِي حتَّى أحكمَ هو الآخرُ القبضَ براحتيه معا على جَسَدِي؟

لقد أصبح مجرَّد الوُقوف لا يتأتى لي إلا بعدَ اجتياز حرب يومية بيني وبين جسَدي، والسَّماء، والأرض. نعم! فمجرَّدُ نهُوضِي يُكلفني ساعاتٍ طويلة من التفكير المرهق في الكيفية التي ينبغي أن أقومَ بها: «أعلى يديَّ أم على رجليَّ ينبغي أن أقف كي أكون في الوضع السَّليم؟ ما معنى "الوضع"؟ ما معنى "السَّليم"؟»، أتساءلُ دون توقف. غير أن جميع المجهُودات التي أبذلها لتعريفِ الكلمتين لا تفضِي بي سوى إلى استنتاج أنَّ يديَّ ليستا سوى رِجلين أخريين، وقدمي مجرَّدَ يدَينِ أخريين، وبذَا أصير ذي قوائم أربعة أو أيادي أربع. وهَذا الإدراك يحدث لي التباسا كبيرا يزيد في تعقيده اللُّبسُ الآخرُ الذي يترتبُ عن محاولتي معرفة ما إذا كانت الأرضُ هي التي تقع تحت السَّماء أم أن السَّماء هي التي تقع تحتَ الأرض...

وعندما أصِلُ إلى مرحلة مُتقدِّمة في مُعالجة هذا الإشكال أدرِكُ حقيقةَ تَسَاقُفِ الأرض والسَّماء، فيترتبُ عن ذلك لا جدوى الأفضلية بين أن أقف على اليدين أو الرِّجلين لأنني في الحالتين معا سَأكون بصدد مَشي مزدوج: سأكون ماشيا على الأرض والسَّماء، ولذلك أغمض

عيني وأقفز بسُرعة تاركا للصدفة أمر تحديد الوضع الذي أقفُ به. وبالإيقاع نفسِه أجتاز، قبلَ الخروج من المنزل، حَربا أخرى مع الملابس أحسمُها بالطريقة نفسها. وهذا هُو السَّبَبُ في كونِي كثيرا ما أرتَدي الثياب بشكلٍ مقلوبٍ حيث أضعُ القميص على رجلي والسِّروال عَلى يدي...

غير أن اجتيازَ هاتين الصُّعوبتين لا يحلُّ إشكاليتي بصفة نهائية: فلحظة استدارتي حول المائدة، كثيرا ما يربكني إدراكٌ أعتقدُ من خلاله أني بصدد رَفسٍ وَحَلٍ بالرِّجلين، فأنسى أنني بصدد الأكل، وأكفُّ عن إمداد فمي بالطعام، وبدَل ذلك، أغرق في تأمل حَركات رجلي وهُما تعبثان وسَط الإناء. إن ذلك يبديني والآكلين كمَن يَرقصون رَقصة جماعية وسط الصَّحن أو كمن يعركونَه جماعيا. تنتابني رغبة كبرَى في الانفجار ضحكا، إلاَّ أن تجهم وجُوه الآكلين وغرقهم في تحجيم لقماتِ الطعام بمنتهى الجدِّ يجبرني على قمع الضَّحك بداخلي فأستسلمُ بدَوري لتحجيم لقمَاتِ الطعام ووجهي مغلف بقناع سميكٍ من الجَدِّ (بَدَلَ الجِدِّ) وأنا أتسَاءَلُ: «كيف الخروج من هَذِه الوَرطة؟». والآن كيفَ الخروج من هذه الورطَة؟

*

*   *

- أأنا المجنونُ أم اللغة؟

- عندما لا تفضي التأمُّلات الجسَديَّة بالمرء سِوَى إلى سِلسِلة من اللاَّتواصلات والأزَمَات الدَّاخلية يبقى الالتفاتُ إلى البعد الآخر هو الأمل الوحيد في استعادة تواصلٍ ممكنٍ. فقأتُ عينيَّ والتحقتُ باللغة، غير أني وجدتُ الآخرين هنا لا يتجاوزون مجرَّد أشباح تعوم في الكلام بأقوال مسطَّحة مُبهمة، وذلك حتى عندما يتوهَّمون أنفسَهم بصدد محادثات دقيقةٍ...

أرهِقُ نفسي ببذل مجهوداتٍ ذهنيةٍ دينصوريةٍ لفهم مَلفوظاتهم، لكنني ما أجدُني دوما إلا أمام الحائط نفسِه: إسراف الآخرينَ في تبذير الكلام، وعجزي التام عن فهم ما يقولونه. أكفُّ عن السِّباحة، ألتحق بالشَّاطئ، وأنفضُ ما علق بجسدي من كلماتٍ، ثمَّ أستسلم لتأمُّل بقاياها في دَهاليز ذاكرتي مستضيئا بوحشة المجهول، تاركاً الآخرين يسبحونَ. إلا أن هذا الحل هو الآخر يرهقني كثيرا ويُوَفِّزُ أعصابي لأنه يحيلُ التواصُل معهم إلى استحالة ما لم يَنعَجِن جسَدِي بالكلمة. وهذا يغضبهم كثيرا. فمهما تكن الرِّسالة الكلامية التي أتلقاهَا من أحدهم إلا وأطلبُ تفصيلات وتوضيحاتٍ عن مجمَل عناصرها. وذَلك يجعلني في أعينهم البَلادة بعينها وقد أخذت هيأة كائن... وما من مُناقشة أشارك فيها إلا وتكون مساهمتي هزيلة جدا ما لم تنحصر في الصَّمتِ حتى إني كِدتُ ألصِق علامة الفراغ بنفسي قبل أن يلصقها بي الآخرُون لو لم أجند عقلا ثانيا بِدَاخِلي ليتوَلَّى مراقبة عقلي الأول فَوَافَانِي بما يلي:

«اعلم أنه يصعب تحجيم أفكارك ولغاتك بأحجام الزمان والمكان والسياقات. فبدل أن تفكر في الواقع تفكر في واقع الواقع، وأحيانا كثيرة في واقع واقع الواقع. وذلك ينقلك إلى عمق

الأزمنة السحيقة القادمة. وبدل أن تكتفي بالتواصل تُخْضِعُ التواصل ذاته للتأمُّل والتفكير، بحيث يلقي عليك الآخرون بكلامهم وينتظرون إجابتك، إلا أنك بدل أن تفعل مثلهم، بدل أن تحرك لسانك يمينا وشمالا وتجمع أصواتا وتلوكها ثم تقذفها إليهم كيفما اتفق، بدل ذلك تتيه في تحليل كلماتهم كلمة كلمة من حيث المعنى والجدوى، ثم تسيح بها في أرجاء الكون الرحب إلى أن ينهمر عليك من طوفان الفكر وسديم الأزمنة ما لا تسعه صهاريج العالم ولا عقول البشَر قاطبة ولو انتفخت أدمغتهم وتضاعف وزنها إلى مئات المرات بحيث يصير المرء كلما رام التحرك طلب شاحنة ليحمل فيها عقله... وهم ما ينتظرون منك ذلك يا يعقوب... ثم إنك لحظة وجودك في مكان ما رفقة جماعة ما تكون في وَضع الحاضر الغائب المستعصِي على اللغة والفكر احتواؤه لأنك تريد أن تتواصل بكلام يتقاطع مع حركة العالم وضجيجه: تريد النطق بكلام يلامس تنافر حركات البشر في بقاع العالم أجمع في اللحظة الواحدة. كلاما يلامس العاهرة التي تفتح فخذيها لزبونها في هذه اللحظة، والمرأة المترنحة صراخا من ألم الوضع في اللحظة ذاتها، والعامل الذي يسقط في اللحظة نفسها من الطابق العشرين فيهوى صريعا، والظنين الذي يصدر في حقه حكم الإعدام في اللحظة ذاتها... وذلك يبعثرك ويبعثر أفكارك إلى أن صرتَ مَعْبَرا للأفكار وقارة لإيواء سائر أنواع الرحلات. فالفكرة الواحدة تنطلق في ذهنك حول موضوع ما، في يوم ما، بمكان ما وأنت رفقة جماعةٍ من الأفراد،

لكنها لا تمضي إلا قليلا ثم تتوقف لمدة زمنية لا تملك أنت ولا الزمن المتواضع عليه وحدات قياسها، تتوقف استجابةً لطلبات أفكار أخرى منها ما ينطلق للمرة الأولى، ومنها ما يعبر، ومنها ما يستأنف رحلته بعد طول وقوف وانتظار... وذلك كله يجعل من جسَدِك جينيالوجيا للأفكار أو همّا للعالم (وقد أصبتَ يوم قلتَ: «لما كثرت هموم العالم وأثقلت عليه وشقَّ عليه حملها صارت إياي») ويعطيك وضعا إشكاليا يصعب تحديده. فأنت تعرف كل شيء ولا تعرف أي شيء. أنت ممتلئ وفارغ. ممتلئ بفراغك وفارغ بامتلائك. تقول كل شيء دون أن تقول شيئا. وحينما تحاول تحديد وضعك تؤدي الثمن بمعجون من جسدك وكلماتك واحتراق رئتيك... أتذكر تلك المناقشة التي استغرقت منك انسلاخ قدميك مشيا لتجد أخيرا أن ما تبادلته خلالها ومُحَادِثُكَ لم يتجاوز عَشْرَ جُمَل؟

أنت في وضع ربحتَ فيه العالم وخسرتَ اللغة، ولكن العالم عندكَ الآن قلق لأن اللغة تنقصه. وما تسعى إليه بالضبط هو تقليص المسافة الفاصلة بين اللغة والعالم. يجب أن تعلم أن المفارقة بين الإثنين مُفارقة معطاة، وما حاول الإنسان إنجازه منذ وجوده «الأول» حتى الآن إنما هو إقامة زواج بين العالم واللغة وجعل كل منهما وجها ثانيا للآخر. لكن، هل هذا ضروري؟!»

والآن، هل هذا ضرُوري؟ هه؟! أجيبوا. لماذا أنتم صَامتون؟!

للخرُوج من هَشاشتي وهُزَالي أمام كثافة اللغة وتعدُّدها أحكمتُ إغلاقَ باب غرفتي علي وحصرتُ مجموعة من المواضيع قصدَ الكتابة فيها، لكنني ما أكاد أكتب سَطرا واحِدا حتى يقعَ خللٌ بين سُرعَة إيقاع توارد الخواطر والأفكار وبُطء حركة القلم المواكبة له، فتتحَوَّل عملية الكتابة إلى سِبَاق بين صاروخ وسُلحفاة لا أظفر منها إلا بما هو أبلى من العَالم، وذلك حتى عندما كنتُ أحوِّل نفسِي إلى مجرَّد قناة لعبور اللغة إلى صفحة انكِتابها...

تحايلتُ على المشكل بالتوسُّل إلى الهوامش، لكن ما من كلمَة كنت أكتبها إلا وكانت تقتضي إثباتَ هامش خاصّ بها، تقتضِي ذلك حتى وإن وَقعَت في الهامش أو هامش الهامش أو هامش هَامش الهامش، فيتحوَّل النصُّ الواحد إلى نسابة من الهوامش اللامُتناهية التي لا تفضي إلى نسيان الموضُوع الأول فحسب، بل وتستوجبُ إلحاق تغيير جذريّ بالشكل الحالي للكتاب بحيث يصير علوُّه عدة أمتار مَا لم يأخذ شكل رُولُو. ولأن ذلك لم يتيسَّر لي بعد، فقد لجأتُ إلى طريقة أخرى في الكتابة لوضع حدٍّ لتساقط الأسطر من أعلى الورقة إلى أسفلها: شرَعتُ في استهلال الكتابة من أسفل الوَرقة: أخطّ الحرُوف مقلوبة، ثمَّ أتجه بالأسطر إلى أعلى الصَّفحة التي لا أقلبها (لتأخذ وضعَهَا الحالي) إلا عِند امتِلائها بالحروف لأتغلبَ بذلك على التشويش السُّفلِيّ الذي يمارسُه الفَراغ أثناء الكتابة. إلا أنني هُنا مَا أكادُ أكتبُ الصفحة الواحدة أو نِصفها حتى تزدحم الأفكار والمشاريع في ذهني فأجدُني مضطرّا للكَفِّ عن الكتابة في هَذا الموضوع، ووضعه جانبا، بشكلٍ مؤقتٍ على أمل العودة إليه لاحقا، والشُّرُوع في كتابة الموضوع الآخر،

وهَكذا... إلى أن تحوَّل دفتري إلى مزبلة من الفقرات التي تفوقُ في تبعثرها تبعثرَ شخصيتي بأضعافٍ مُضاعفة...

آنذاك قررتُ أن أخصِّصَ لكلِّ نصٍّ دفترا. لكنني عندما فطنتُ وجدتُ أن علاقتي بالوراقة قد توثقت إلى أن حصَل في ذِهن صَاحِبها إشراطٌ بيني وبين الدفاتر فصَار مجرَّد مُثولي أمَامه يعني عنده «ناولِني دفترا أو دفترين»، وإن كنتُ في الأصل لا أريد سِوى شفرة حلاقة أو عُلبة سجائر! وهاهي غرفتي الآن مزدحمة بدفاتر لم يُكتَب من كل واحدٍ منها إلا صفحَة أو صفحتين، لست أدري ما تفعله هُنا ولا ما يجبُ أن أفعله بها، إلا أنَّ ذلك ما عاد يهمني بالقدر الذي يهُمُّنِي به البحث عن جوابٍ لهذا السؤال:

- أأنا المجنونُ أم اللغة؟

*

*   *

لي اليقين التام بأن المسؤُول الأوَّل والأخير عمَّا أنا عليه الآن إنما هُو اللغة، أقصدُ اللغة كما توَاضعَت عليها البشَرية بعدما حجَّمتها بأحجام وقاستها بمقاييس، وسلمَتها لكلِّ امرئ قائلة: «إليكَ بوعَاء يسَعُ إحسَاسك وفكرك مهما يكن هذا الإحسَاس والفكر»، أقولُ: أقصدُ تلك اللغة وليسَ اللغات الممكنة التي أضاعتها جحَافلُ الأقوام التي انحدرنا منها، التي تعاقبت على الأرض مالئة إياها بالصُّرَاخ والاقتتال زَاعمَة أنّها تشيِّد وتبني وتتقدَّم! اللغَات التي أضاعتها البشريَّة جمعاء.

ذلك أنهَا لما اكتشفت اللغة، بدلا من أن تواصِلَ الحفرَ في هذه الأداة للوُجود إلى أن تدرك أن مَا من إنسان مقبل إلا وسيطلٌّ من آفاقَ رَحبة جديدة مودَعة بداخله، وشرفات ونوافذ عديدة مُثبَّتة في رأسه، تحتَاج إلى إمكانياتِ ابتكار مُتجددة دوما، للنقل والإيصَال، داخِل اللُّغة نفسِها، بدَل ذلكَ استسلمتْ هذه البشرية للنوم العَميق... ومن ثَمَّ، هُزَالُ القوامِيس الحالية وضُمُورُهَا أمام ما أحِسُّ به وما أفكرُ فيه. أنتم تعرفون هذا جيدا، لكنَّكم لا تملكونَ الشَّجاعة الكافية للإفصاح عنه، وإلا فلماذا لم تصدِّر أيُّ صحيفة من صُحف العالم قاطبة - على كثرتها الرَّهيبة - صَفحتها الأولى بالإعلان عَن خبر مرضي، علما بأني - مع «دائي» هذا - أظلُّ أعظمَ وأنبلَ وأذكى رجُلٍ عرفته البشرية على الإطلاَق، بل أثرى رَجُل على وجه البرية بما أملكه من ثروات فكر وأزمنة طَائلة؟ إنني لأؤكدُ لكم منذ الآن ثمَّ أؤكد بأن شخصية مثلي إن هيَ إلا فلتة لم يجُد بها التّاريخ على بني الإنسان إلا مرة واحدة مُجسَّدَة فِيّ بالضَّبط. وعمَّا قريبٍ سأقدِّم لكم الدليل الملموس على ذلك باستبدَال حُرُوقِكم (لا حُرُوفِكم) الهجائية بحُرُوفٍ جديدَة ما أن يُلَملم المرءُ شفتيه للتلفظ بكمشَة منها حتى تنقلب عَليه بما لا ينفعه مَعَها إلا جمع الحقائب والسَّفر إلى بلادٍ حيث العُشْبُ يهذي، والأزمنة تصمِي، والفكرُ يجرفُ كالطوفان...

*

* *

سيدتي،
لا تحية ولا يحزنون
وقبـل،
فإنِّي أنا، وأنا لستُ أنَا،

اعلمي أن السّاعة تشيرُ الآن إلى الرابعة صباحا وأنا لم أنجح بعد في دل النوم على جسدي رغم استلقائي فوق السرير وإطفائي للمصباح وتوسُّلي في محاولة إرهاق الذهن إلى التأملات المضنية العميقة، ولذا فكرت في المثول أمام هذا البياض للكتابة إليك.
إن هذا التصرف، كما تَرَيْنَ، تَصَرُّفٌ غير لائق. ينم عن سوء تربية، لا أخلاقي ومغرق في الأنانية، لأنني لم أجد ما أصطاد به راحتي سوى إزعاجك في هذه الساعة المتأخرة من الليل أو المبكرة من الصباح. لكنك ستجدين في هذه الصحيفة من المعلومات الخاصة بشخصك وشخصي ما سيفرحك، وبالتالي يجنبكِ حتما مغبَّة مؤاخذتي.

لا أخفي عليك، سيدتي، أن الجنون قد حاصرني إلى حد لم تعد تجدي معه أي محاولة بذلتها إلى اليوم لإخفائه. لم تعد محاولاتي طُرًّا سوى سلسلة من الاستحالات. فقد هرئت أقنعتي جميعا ولم تعد تفيدني في شيء حتى عندما ألبس أربعة منها أو خمسة دفعة واحدة، إذ ما أمثل أمام الآخرين حتى تأخذ حُجُبِي في التفسخ والتساقط الواحد تلو الآخر إلى أن أجدني وجها عاريا لا يفعل سوى إعادة قذف - وبشكل ميت - كل ما يمتثل أمامه.

وذلك يثير في رعبا لم أتخلص منه إلا يوم دفنت نفسي في هذه الغرفة الكئيبة والتحقتُ بجمهرة الأشياء المحنطة بداخلها. لقد امَّحَت أدنى مُستويات الإدراك عندي وها أنذا أحيا مُشيَّئا، لا فرق بيني وبين هذه القنينة المثبتة في زاوية الغرفة أو هذه اللوحة أو الكتاب... أنا الزُّجاجةُ والكتابُ والرَّفُ والحذاءُ. أعيش خارج الزمان والمكان، لا أعرف منذ متى التحقتُ بهذه الحجرة ولا كم قضيتُ فيها. كل ما أعرفه هو أنني الآن موجود فيها في انتظار أن أجد المكان الأليق بها وبي. وفي انتظار ذلك، ها أنذا منهمك في إعادة مَوْضَعَتِهَا يوميا في باطن الأرض، وأعماق البحار، وأجواء السماء، وقمم الجبال...

سيدتي،
ستكونين مخطئة الخطأ كله إذا تسرعتِ بإبداء أدنى شعور بالشفقة إزائي. اعلمي أنك إلى شفقتك أحوج مني إليها. فأنا أضطلع بمهام كثيرة شاقة معقدة وعلى درجة قصوى من الجد والأهمية. فحينما يرتفع ضغطي الدموي أتولى قيادة العالم من غرفة قيادته هَذه التي هي غرفتي. وأخبرك منذ الآن أن ركض حوافركم - أنت وسائر الأسوياء الذين يحسبون أنفسهم ملائكة - في الصباح الباكر يزعج قيادتي لكثرة ما يحدثه من صداع في رأسي وما يكلفني من مجهودات دينصورية لحفظ توازن العالم. إن لم تكفوا عن الركض أجد نفسي مضطرا لإعادة تشكيل الكون وخلقكم ثانية بهيئاتٍ جديدةٍ... إلا أن العالم حينما

يتوازن، يسيل الدم مني بقعا، فيقشعر الجسمُ، ويقف شعر الرأس، وتتقزز السبابة والإبهام كلما احتكتا، فأؤدي الثمن بتنقل لا ينقطع بين الفراش والمصباح لرؤية ما إذا كان فراشي قد غرق في دمي أم لا...

تنتابني رغبة كبيرة في القيء، إلا أنني لا أقيؤني إلا بهيأة جسدٍ زجاجي يحولني بشفافيته إلى معبر للكائنات والأشياء، فأغرق في التأملات الذهولية المنتشية ومجاهدة النفس في إيجاد صيغة توفيقية بين تَمْوِيض الجنون والفصل بين المتصل والمنفصل - بداخلي - بيني وبين العالم الخارجي إلى أن أنكسر. ولست أظنك مستزيدة تفاصيل أخرى حول هذه المسألة مادام سَبَقَ لكِ غير ما مرَّةٍ أن توليتِ أنتِ نفسِك جمع شظاياي وإعادة تركيبها من جديد...

لا أخفي عليكِ، سيدتي، أن الحيوانات قد بدأت تمارس عليَّ من الاستفزازات ما لم يقف عند جعل جسدي منزلا للرعب والصراخ فحسب، بل تعدَّاهُ إلى إحداث التباس - لا زالَ مُستمرا حتى اللحظة - لديّ في معرفة مَا إذا كنت إنسانا أم حيوانا: فبالإضافة إلى تجلي يدي بأشكال الذئاب امتلأتْ غرفتي بكافة فصيلات الأفاعي، والأحلام القاتلة والكوابيس المرعبة التي تسافر بي إلى عوالم أنفق فيها الساعات الطوال بين اقتتال القطط والأفاعي، ولا تسلمني إلى اليقظة إلا بهياة ثعبان. وبهذه الهيأة أنجح في التعرف عليك كلما زرتني من غير استئذان ولا سابق

إعلام، وذلك حتى عندما تتنكرين بهيأة علبة سجائر، أو دفتر كتابة، أو أقلام رصاص، أو أعواد ثقاب... والسبب في عدم نومي إلى هذه الساعة هو رعب الأفاعي، وخاصة منها وحيدة القرن مثل هذه التي لم تنفك تنظر إلي منذ جلست في المكتب وحملت القلم والورقة لكتابة هذه الخطبة. فكيف يمكن تفسير ذلك؟ أهو استعجال لاتجاه الإنسان العاقل نحو وضع الامتداد أم هي التباشير الأولى لموتي المرتقب؟ ألا يجب إنجاز بحث في الأفعى وما يحايثها من أساطير وخرافات وتمثلات وطقوس في كافة بقاع العالم وعلى امتداد التاريخ؟ ما علاقة الأفعى بالإيروسية؟ ما علاقتها بالموت؟...

سيدتي،

لا أخفي عليكِ أنَّ الموت قد ضَرَبَ عليَّ هو الآخرُ حصارا قاهرا لا أجد ما أتوسل به لفكه سوى تأملات تستنفذ مني طاقات ذهنية بحجم انتفاخ جثتي وما يكسُوها من أورام. لقد ارتفعتْ من جسدي ثنائية حياة - موت والتحقت بها كافة مستتبعاتها اللغوية والطقوسية، فأصبحتُ سجينَ بُعدٍ وجُودِيّ واحدٍ لا أعيشُ به إلا داخل حياة مطلقة أو موت مطلق...

ما الموت؟ الموت هو الـ «هنا»، الـ «كل هذا»، الـ «نحن»، الـ «أشياء» المحيطة بنا... وعليه، إن أمُت تكوني مخطئة الخطأ كله إذا اعتقدت أنني أنا الذي متُّ لأن الميت آنذاك لن يكون إلا أنت، وأبي، وأمي، والآخرين... وإذا بكيتم علي لن يكون بكاؤكم إلا

على أنفسكم. أما أنا فسأكونُ في منطقة الحياد. سأعبرُ سريعا سريعا إلى منطقة الحياد والمحو والبياض، حيث أصرفُ الآن أزمنة مكعَّبَة في استكشاف مساحة الموت بداخلي واستنطاقه إلى أن يتكلمَ، فينطق بكلام يصعب نقله إليكم باللغة في وضعها الحالي...

سيدتي،
لقد توترتْ علاقتي بالمحيط الخارجي إلى أن أصبحت سلطة تحطيمي في متناول جميع الناس، لكنني لا أتحطم إلا بحروب داخلية لا تنقطع، ما الحركات البهلوانية التي تلبسني لحظة مشيي وقعودي وكتابتي، ومشيتي المتمايلة التي يعتقد من نصبوا أنفسهم ملائكة أنها بسببٍ من السُّكر أو الجنون، والحواجز التي أقصتني من التواصل بحيث تقوقعتُ على نفسي وانكمشتُ إلى أن لم أعد أعرفُ ما إن كنتُ لا زلتُ إنسانا أم صرتُ قنفذا، والجرأة التي ساقتني إلى اقتحام بيتك دون استئذان أو سابق إعلام لمجرد الإنصات إلى الموسيقى المنبعثة منه في ذلك الصباح السعيد، والإفراط في الرقص إلى أن حشدتُ طوابير السيارات والعربات والدراجات، والصراخ الذي أصميتُ به أذنيك عندما ردَّدْتُ: «أعيديني إلى المنزل، فأنا لستُ يعقوب!» عندما كنتِ تضاعفين من قوة إمساك يدك بيدي مقدار محاولتي سحبَ كفي من كفك بقوة... ما ذلك كله إلا أكثر المظاهر تسطحا للحروب الضارية الدائرة فيَّ ليل نهار. فبإمكان أي فرد، حتى وإن

لم يتجاوز عمره ستة أشهر، أن يؤزمني إلى أن أضعَ وُجودي بكامله موضع تساؤل، وأصعد رأسا إلى الأسئلة الكبرى من ضرب:

إذا كنا آيلين حتما إلى الموت فلماذا نتهافت على الحياة؟ بل، هل هذه الحياة جديرة بأن تعاش؟ لماذا بدلا من تأخذ البشرية سبيل القعُود والتأمّل في الموت، واختلاف المخلوقات والموجُودات، وحُدود اللغة، ومعنى الجنس، والمرض، والحياة، وما إلى ذلك...، وتمضي فيه قرونا طويلة، ثم تختار بعد ذلك النمط الوجودي الملائم - على ضوء ما ستهتدي إليه من أجوبة - أقبرتْ تلك الأسئلة كافة وزجَّتْ بالجماعات والأفراد في هذه القمامة قائلة: «احيوا، توالدوا، وتناكحوا، وتكاثروا. فما الحياة إلا أكل وشرب ولباس وعمل ونكاح وتوالد»! نعم ما الحياة إلا قمامة للأكل والشرب واللباس والعمل والتوالد... فيا رحَّالُ، افرغ هذه القمامة منا وأرحنا جميعا!

لقد وُضِعَ التأويل بداخلي في حالة مدٍّ فصرتُ وصار الناسُ والأشياءُ من حواليَّ لصوصا (لا نصوصا) مستغلقة لا أملك أمامها إلا الوقوف مشدوها متسائلا: «أبارانويا عشق أنا أم عشق بارانويا؟»

أبتهل يوميا إلى طوق نجاة فما أجدُنِي إلا غارقا في ممارساتٍ غريبة لا أفهم حتى معناها، فأحرى أصلها. ففي غمرة ذهولي المنتشي أنهمك في تشويهِ - وبدقة مبالغ فيها - عَدَدٍ لا محدود من

الرؤوس البشرية قبل أن أمزقها مباشرة وألقي بها في سلة المهملات. ما معنى ذلك؟ إني قاعد هنا، أنتظر حواء الجديدة في كل لحظة وسط طقوس من الابتهالات المرفوقة باستحلاب ضلعي الأيمن...

سيدتي،

لقد استعضتُ عن الماء بالقهوة السَّوداء. أدخِّنُ أربع سجائر دفعة واحدة، فما أكاد أقضي خمس دقائق أو ست في مكان ما حتى أحجبه وسط غيومي. وصارت الموسيقى تزوبع مكامن خواطري وشجوني فلا أملك أمام سماعها إلا النهوض والرقصَ الرقصَ بشكل يثير قرف الحاضرين واشمئزازهم إلى أن يفروا ويتركوني فريسة لذبذباتها...

لماذا أفعل ذلك كله؟ ومن يملي عليَّ القيام به؟

سيدتي،

أرجو منك أن تتفضلي بمد يد المساعدة إلي حتى أتمكن من الخروج من هذه الورطة، وذلك بإجابتك عن هذا السؤال خارج كل مراوغة أو مواربة: «متى بدأت السيرورة التي حتَّمَتْ عليَّ الاستقرار في هذا الوضع؟ أيوم أصِبْتُ بهَوَسِ الرّقص أم يوم انفجرتُ ضحكا؟ هل أنت هي حواء الجديدة؟ لا تراوغي. وإلا

فلماذا شغَّلتِ جهاز الموسيقى وتركتِ باب بيتك نصف مشرع؟»...

أتعلمين سبب انفجاري ضحكا يوم تناولتُ وجبة غذاء معك؟ لقد أربكني إدراكٌ خيَّلَ إلي أنني بصدد رفس وحل بالرجلين، فنسيتُ أنني كنت بصدد الأكل، وكففتُ عن إمداد فمي بلقمات الطعام. وبدل ذلك غرقتُ في تأمل حركات رجليَّ وهما تعبثان وسط الإناء. لقد كان ذلك يبدينا كالراقِصَيْنِ رقصة ثنائية وسط صَحنِ الطعام أو كمن يعركانه. انتابتني رغبة كبرى في الانفجار فانفجرت ضحكا، لكن تجهم وجهك وانهمَاكِكِ بجد في تحجيم لقماتِ الطعام أجبرني على قمع الضحك بداخلي، فاستسلمتُ بدوري لتحجيم لقمات الطعام ووجهي مغلف بقناع سميك من الجَدِّ وأنا أتساءل: «كيف الخروج من هذه الورطة؟ كيف الخروج من هذه الورطة؟»

والآن كيف الخروج من هذه الورطة التي ألقيتِ بي فيها وانصرفتِ؟

سيدتي،

مخافة أن يفرَّ بي القلم إلى ما أخشى سوء عاقبته عليكِ وعليَّ أتوقف عن الكتابة الآن.

تذكير: لا تنسي أني أنا، وأنا لستُ أنا

وفي انتظار جوابك، لا تحية ولا يحزنون، ولك مني جزيل الشكر على حسن انتباهك.

التوقيع:

رأسُ العاقلِ

ي. ي. م. أ.


كِتَابُ الفُقْدَانِ

«يمامة العقل طارتْ، ووهادُ الفكر مالتْ. أنتَ اليوم ضريرٌ. نطحتكَ ناطحاتُ الفكر، فألقت بك طريحا على قارعة الطريق. اليوم أنت ضريرٌ. لكَ أن تشحذ مِنهمُ الفكرَ أو تتصدَّقَ عليهم بالأزمنة وحُرُوقُ ما أنزلَ عليكَ من وَحْي...تسألُ عن الجليد؟ بين أضلُعِكَ قِمَمٌ شَاهِقَةٌ مِنْه، ما الهملايا إلا نسخة رديئة منها...».

دعنا من هذا الكلام! فقد قلتُه لهم، ثم قلتُه، وأعدتُه، ثم كررتُه، ولم يسمعني أحدٌ، فأحرى يَفهَمني! هاتني الآن كشفَ حِسَاب ما دوَّنَّاهُ من وحي لنقفَ على كلفة ماكتبناه عسَانا نخرج سالمين من قَعْرِ البئر التي نحنُ فيها قابعونَ منذ سنين.

ما من صفحةٍ كتبتهَا حتّى الآن إلا وأدَّيتُ عنها مبلغا بأوراق نقدية من فئة دماغي. فكلما عدتُ إلى صَحيفة وجدتُ بهَا بقعا رَمادية اللّون وبقايا من رَائحة ذَاكرتي. عَرضتُ الأمر عَلى جماعة من البَشر، إلا أنهُم كانوا من العمى بحيث لم يروا أيَّ شيء مما أرَاه. وإذا كان خَوف استنفاذ دماغي هُو ما أجبرني على الإمسَاك عن الكتابة طيلة السَّنوات العشر المنصرمة فها أنذا اكتشفتُ طَريقة لاسترجاع ما اقتصَّهُ مني القلم:

* الاسم: أأحمد أنت أم محمدٌ؟

- ويوسف، أين تضعه؟

- تلك مشكلةٌ أخرى!

* تاريخ الإزدياد ومكانه: سنة 000 000 1 ضَوئية، بالضلع الأيمن.

* مشكلتك: لستُ أدري أينا يقع خارجَ الآخر: نفسي أم أنا؟ غير أن معرفة ذلك لن تغير أي شيء مما بي لأنه سَواء أكنتُ أنا السَّاكن خَارج ذاتي أم كانت نفسِي هي القاطنة خَارجي فذلك يؤلمني كثيرا ويُوحِشُ الحياة في عيني...

ثمَّ هذه الجثة! أأنا الذِي أحملها أم هي التي تحملني؟ وسواءٌ أكنتُ حاملها أم كانت حامِلَتِي فهي ليسَت سوى نافذة يطلُّ منها عشرات الأشخاص الموجُودين بداخلي. لستُ وحيدا بالقدر الذي تتوهمونه! فقد وُلدتُ عشر مرَّات، وبداخلي جماعة مني ترافقني أينما حللتُ، فافسحوا لي الطريق عندما نَكونُ سَائِرا حتى أتمكن من المرور بلا ازدحام. إن زاحمتمُوني عرَّضتم الغرف المقيمَة بداخلي لخطر الانهيار عليَّ. وكثيرةٌ كثيرةٌ هي البيوتُ المقيمة فيَّ: غرَف للدماغ وغرَف للأفكار، غرف للأحاسيس وأخرى للأعضَاء...

عمَّا قريب سَأكافؤكم بتخليصِكم من عُقال العقل: سَنَاتيكم بتمَارين ما يُنجزهَا المرءُ منكم حتى يتعطل عقله. سَنكتب قصَصا أن يُنهي المرء قراءتهَا حتى يعدَّ حقائبه ويفرَّ إلى حيث لا عَودَة. وهؤلاء الذين لا نعرفُ من مِنَّا يقيم في الآخر، ستنفلتُ مني دَوما الإطاحَة بهم (لا الإحاطة بهم، فقد غسلتُ يديَّ ونفضتهما من مَعرفتهم مُنذ اكتشفتُ أنهم كانوا خوَنة، يُفَاوضُون الملائكة سرّاً) لأنهم يتوالدُون

باستمرار ويتنكَّرُونَ وراء هيئاتٍ متعدِّدَة فضلا عن أنَّ ما من أحدٍ منهم إلا وفيه شيءٌ مني. فمن أنا؟

يخامرُني يقينٌ وأنا قابع في وحدتي هذه بأنني لستُ سوى تركةٍ عمياء تَبَقَّت مما تمَّ هنالك حيث فُقِئَت عيناي وقُطعت يَدَاي ورجلاي وخُتِمَ على عقلي بالنِّسيان. أنا الآن مجرَّد كتلة دم وعظم وظلام، لا يشدّني إليكم سِوى كيسُ البُراز، هذا، الذي تسمُونه بطنا.

عمَّا قريب سيصيُر الغابُ مقامي، والماء خمري، والعُشب طعَامي، والحيَوانات إخواني، ووُجودكم من حَواليَّ محضَ ذكرى عَمياء.

*

*   *

بقدر ما يَهَبُني يقينُ كوني أجَسِّدُ صفاءَ النوع نشوةً واعتزازا تُسَلِّطُ عليَّ القناعة نفسها رُهاب دنسِ مخالطة الآخرين حتى لئنَّ الشَّعرة الواحِدة تسقط من رأسي لهِيَ عندي أغلى من مجمُوع ذهب العالم وأموَاله. وهذا هو السَّبب في كوني لا أبارح المكَان الذي تسْقط فيه «مجرَّد» دمعة أو مخاطةٍ أو قطرة عرق مني إلى أن أستعيدها وإن اقتضَى ذلك مني صَرف أعوام وسنين. فإياكم ومغبَّة الاستغراب أو السُّخرية مني إذا رأيتمُوني أحُط الرِّحال «أينما اتفق» وألازم المكان الواحِد أياما وشهورا بقواريري وصُحوني وزُجَاجَاتي وأغطيتي، أو رأيتموني أقوم بتلك الحرَكات البهلوانية في الطرقات. إني أكونُ حينئذ بصدَد البحث عما ضاعَ مني مانعا جسَدي من التفسُّخ، وعن المكان

الملائم لإيواء غرفة قِيادة العالم التي أحفظ بها توازنكم فيه. إن تسخرُوا مني أو تزعجوني أرفع يدي عن المقوَد فلا تفطنوا إلا وأجسَادُكم هَاوية على السَّماء بسُرعَة مُدوِّخة...

أخبركم من الآن بأني قد وُلدت كهلا، وبتوالي الأعوَام أصغرُ، ولذلك فسوفَ يأتي يومٌ أحبو فيه حتى إذا بلغتُ أشُدِّي بدأتُ الرَّضاعة. فهيئوا حليبي من الآنَ...

وهذه القوارير والعُلب التي لا أترُكُها تبعد عني قيدَ أنملة، أتظنون أنَّها مجرد أشياء تافهة؟! انظروا: في هَذه العلبة أضعُ أظافري، وفي هذه أودِعُ شَعري. في هذه دموعي، وفي هَذه مخاطي. في هذه عَرَقي وفي هذه برَازي... أنا كائن مقدَّسٌ. حذار أن تمسُّوا إحداهن، إن تفعلوا لن تمسُّوا إلا أنا، لأنَّ هذه القوارير هي حدُود جسَدي. هل استوعَبتم الآن الفرقَ بين وُجُودِكم ووُجُودِي؟ وجُودٌ قَنويٌّ. استبدلوا نونَ الصِّفة لاما، فذو اللامِ وُجودُكم وذو النُّونِ وجودي.

لستُ بقواريري وأوعيتي هَذه سوى مُشرفٍ عليكم منَ الأزمنة السَّحيقة القادمة بأدواتٍ بدائية تعوزني الآنَ قدرة صنعها بالطريقة الأكثر ملاءمة. فأنا مُوقن تماما بأن هذه التي تسمونها مخترعاتٍ لا تعدو مجرَّد أدواتٍ يشيد الكون نفسه بها عبركم. إنَّ العالم بصدَد الانبناء. وما أنتم في أشواط تشييد نفسه بنفسه سوى في المرحلةِ الأشد بدائية. سوفَ يأتي زمن يُحَوِّلكم فيه الكونُ إلى أجهزة مثبتة مشدُودة إلى أنابيب بحيث لا يُبارح أحدكم مكانه منذ ولادته حتى مماته: أنبوب مثبت في عينيه سوف يأتيه بما يبصرُ، وأنبوبُ ملصق في أذنيه سيأتيه بما يسمعُ. أنبوب يأتيه بالهواء وآخر يمتصُّ منه البولُ والغائط...

أنا الآن في ذلك الزمن. ولكوني لم أنجح في صُنع أنابيب فقد اكتفيتُ بقوارير. فهل فهمتم الآنَ معنى هذا الكلام؟ أعتقدُ أني واضح بما فيه الكفاية. وإلاَّ فعليكم السَّلام. وإذا تمسَّكتم برغبة المعرفة فقولوا: «هَذَا كلامُنا» مثلما أقول عندما لا أفهمُكم: «ما هذا إلا كلامي! هذا كلامي وكفى، فسبحاني ثم سبحاني!».

إن تستزيدوا لأزيدنّكم بأسلوبٍ آخر:

سأدعُو هَذه الكائنات التي تنزل من كَواكب أخرى، خصِّيصا إلي، لتوسعكم ضربا بهراواتٍ ما هذه الأدوات للعِقاب التي تسمُونها مُسدَّساتٍ، وعصيا، وأصفادا، وبندقيات، ودبَّابَات، وشُرطة، وعَسكرا...، مَا ذلك كله أمامها سوى لعبٍ خسيسةٍ تثير الضحك والشفقة.

عَفوا، عَفوا! آه عَفوا! فأنا أهذِي. هَدِّئ نفسك يا أنا! هَدِّئ نفسَك!

*

*　　*

من منا انسحبَ، أو بالأحرَى أقصَى الآخَر، أنا أم هُم؟ متى تمَّ ذَلك؟ يجب عليَّ صرف ما تبقَّى من حياتي في «مجرَّد» البَحث عن جوابٍ لهذا السؤال، فأحرَى استعادة حَيَاتي السَّوية. وفي انتظار ذلك، كلُّ ما أذكرُه الآن هو أنني لم أفطن إلا وقد وجدتُ في اللغة شروخا كبيرة وهُواتٍ عميقة لا تحيل كلَّ تواصل بيني وبين شَخص آخر، مهمَا

كان، إلا إلى حِوار بين ساكني كوكبين مختلفين أو إلى حَديثٍ بين إنسان وَجدار. فقد صارَ كل لقاء بيني وبَين الآخرين لا يتِمُّ إلا على شكل امتحان عَسير: ما من كلمةٍ يلفظها مُحادِثي إلا وتضعُني في حالة حَصرٍ عميقٍ لا أفطنُ معه إلا ووجهي محمرٌّ وجبيني يرشحُ عرقا. ما من شيء ينطق به الآخر إلا ويهوَى على رأسي كما تهوَى عليهِ المطرقة الصلبة. لذلكَ، مقتنعا بأن تلك هي الحقيقة، لا أجد بُدّا مِن إصدار إيماءة بالرَّأس قائلا: «نعم»، حتَّى إذا انصرَف محادثي وخلوتُ إلى نفسي انبجستِ الحقيقة مُتألقة في ذهني، وهبَّت عليَّ أفواج البراهين المعاكِسة من كلِّ حدبٍ وصوبٍ ناسفة كلَّ ما سمعته، فأوقن بأني قد غُبنتُ. وفعلا أكونُ غُبنتُ لأنَّ السياقات المقبلة لا تسمحُ لي بعَرض براهيني عَلى محادِثي لأنَّ عرضَهَا لحظة المناقشةِ يكونُ فاتني، ثمَّ لأنني لو عرضتها في سياق لاحق لغيَّرتُ مجرَى الكلام ولسخر مني الآخرون. ولذلك قرَّرتُ أن أقول دائما: «لا». غير أنَّني كلمَا ألفظها يسخر مِنّي الآخرُون طالبين توضيحاتٍ فأجدُني صامتا خجولا مغبونا محمر الوجه كمَن ينتظرُ وَحيا لاينزلُ، أو كمن نزَلَ عليه وحيٌ تعذرَت عليه سُبل تبليغه، حتَّى إذا وصلتُ إلى المنزل وجدتُ الجوابَ المناسب...

لقد تحدَّيتُ أحدهُم مرة - كان سألني البارحَةَ: «هل هذا كُرسي؟»، فأجبته: «لا» - بأن عُدتُ إليه صباح اليوم الموالي، وقلتُ له مشيرا إلى ما سَبق أن زعم أنه كانَ «مِقعَدا»: «إنَّ هذا شَجرة»، لكنه أمسَكَني وقادني إلى زاوية في الشَّارِع ثم أومأ إلى شيء وقالَ لي: «هل هذه شجرة؟»، أجبته: «لا»، فسخِرَ مني صحبة جماعة. ولما عُدت إلى المنزلِ

اكتشفت أن ما زعم أنه شَجرة لم يكن في الحقيقة إلا أنا. لكن أي سبيلٍ لإقناعهم به؟

لقد تعقَّدَ مقامي في الحياة إلى أن أصبحتُ «مجرَّد» بحثٍ متواصل عن معرفة متى يجب عليَّ أن أقول «نعم» ومتى يجبُ أن أقول «لا»، متى يجب أن أتكلم ومتى يجب أن أصمت، كيف يجبُ أن أضحك وكيفَ ينبغي أن أسير في الطريق... ولكي أتوصَّل إلى ذلكَ أنفقتُ أعواما وسنينا اجتزتُ طوالها محنا عديدة قبل أن ينتهي بي الأمرُ إلى ما أنا عليه الآن:

كنتُ أيامها أشخاصا عديدين لا أذكرُ منهُم الآنَ إلا اثنين: أحدُهما اسمه أحمد والآخر اسمه محمد. أحدهما قريبٌ، والآخر بعيدٌ...

- أي الاثنين كانَ القريب وأيهُما كان البعِيد؟

- صَه يا أحمد! أإيهَاما بأنكَ صِرتَ شخصا ثالثا يحكِي عن أحمد ومحمَّد؟!

- نعَم. أنا يعقوب.

- أأحمد أنتَ أم محمد؟

- الله أعلَم!

- وإذاً فقل «نحنُ جمعٌ»، وكفَى.

- نحنُ جمعٌ وكفى!...

القريبُ كان يلازم المنزل، طاولة الكتَابة تحديدا. كانَ ذاك الشخصُ عقلا مدبرا يُملي عليَّ كل ما يجب أن أفعَله كي أنجحَ في إخفاء مَرَضِي عن الآخرين، خاصَّة في الأيام التي استحوذَ علي فيها

وسوَاس فقدان الذاكرة بعدما أخذ الناس من حَولي يتراءون لي قطعانَ ماشية يصعُبُ تمييز الواحد داخلها عن الآخَرين (ولا أريد أن أُصَعِّدَ رأسي هُنا بالوقوفِ عند هذه النقطة لأن ذلك سيضطرني إلى كتابة أسطر عَديدة، يمنعني الإرهاقُ من تدوينها، ستتبدى في النهاية حكاية ل «لا» و«نَعَم» مِن وجهها الخَرُوفي إن شئتم).

ومما أمرَني به ذلك الشخص تدوين دليلٍ عِلمِيّ لي في الحياة أسميتُه «كيف تكون إنسَانا سويا»، وهو عبارة عن كتابٍ ضخم في حجم وِسَادة كبرى، نسختُ فيه كل ما يحتمل أن يتراءى لي أو يسْقط بصري عليه حتى أتمكن من التعرُّف عليه بسهولة والتصرُّف معه بالطريقة اللائقة لكي لا أثير انتباه الآخرينَ، بدءا من الأشياء الجامدة، مُرورا بالكائنات المتحرِّكة، وانتهاء بالسياقات والمواقف. كان ذلك الكتاب هوَ طوق النجَاة الذي كنت آمُلُ من خلاله اتقاء خطر الغرَق في الأشياء والناس. وقد اتَّبَعْتُ في تأليفه الطريقة الآتية: أحكمتُ إغلاق بَاب غرفتي عليَّ، وجلستُ في المكتب، ثم فتحتُ الصفحة الأولى، وقيَّدتُ فيها حرُوقكم الهجائية حتى لا أنسَاهَا، ثم شرَعتُ في ضَبطِ أوصافِ جميع الأشكال الموجُودَة داخل الغرفة وإثبات ما يقابلها من أسماء، فكنتُ أكتبُ مثلا:

«إذا رأيتَ صندوقا صغيرا من الكارتون، بداخله شبه جارورة امتلأت عن آخرها بأخشاب كالمسامير، على رأس كل واحدة منها شيء يُبديها كالدَّبُّوس، فقل: "إنما هذه علبة أعواد ثِقَابٍ، وهي تصلح لإيقاد النار"».

وتحسُّبا لأي خلط قد ينتابني في التعرف على الشيء الواحدِ حينما تتغير أشكاله، كنتُ أضبط جميع تنويعاته على شكل مُلاحظات أذيّل بها نصَّ وصفه. ففي حالة أعواد الثقاب، مثلا، عمدتُ إلى شِراء جميع أنواع العُلب الموجودة في السُّوق، ثمَّ ذيَّلْتُ الاسم السَّابق كاتبا:

«ملاحظة: لا يتغير هذا الاسم حتى وإن كانت العلبة حمراء اللون، رُسِمَ على وجهها الأول صورة جياد أربعة تجر عربة مثلثة كتب فوقها: "العربة الممتازة"، وعلى وجهها الثاني كُتِبَ الاسمُ نفسه بالحروف اللاتينية، أو كانت العلبة بيضاء رسم على إحدى جهتيها فراشة أو قطة، وكتب على وجهها الثاني اسم الشيء المرسوم بالعربية واللاتينية... كما لا يتغيَّر الاسم رغم تبدل مواد الأعواد الموجودة داخل العلبة وأشكالها، كأن يكون بعضها مربع الشكل مصنوعا من الخشب، على رأسه دائرة حمراء أو زرقاء، وبعضها مستديرا، مصنوعا من الورق المشمَّع ذي لون أبيض أو بني...»

وبهذه الطَّريقة كتبتُ جميعَ الأشياء الموجودة في غرفتي إلى أن انتهيتُ، فانتقلتُ إلى باقي أجزاء البيتِ، فسجَّلتُ اسم أمي وأوصافها، وأبي، وإخواني، والأفرشة، والأوانِي، والمنزل لأنتقلَ بعدَ ذلك إلى الخارج، فقيَّدتُ أسماء الجيران، وأوصافهم، وأنواعَ سَيارات الحيِّ، وألوانها، وأسماءَ أصحابها، ومواقع الدكاكين وأسماء السِّلع... وأهم من ذلك كله، فقد كتبتُ اسمي، وأوصافي، وملابسِي، وطول قامتي، وَوَزنِي...، وذلك بأن وضعتُ أمامي مرآة، فنسختُ كل ما رأيته فيها، ثم أحصيتُ ملابسي، ووضعتُ تَأليفا نهائيا بينها كَاتبا:

«البنطلون الأسود يُلبَسُ صحبة القميص الأسوَد، والسّروال الأزرق رفقة القميص الأصفر، والحذاء الأبيض مَعَ القميص البرتقالي والسِّروَال البنفسجي، وما إلى ذلك...»

ثم ألزمتُ نفسي بالتقيد بذلك النظام حتَّى يسهل علي التعرف على نفسي بين الآخرين بمجرَّد النظر في المرآة أو الالتفات إلى ألوان ملابسي...

ولكي يَسهُل عليَّ ضبط الأحاسيس التي يحملها الآخرونَ إزائي، فقد وصفتُ جميع الهيئات التي تأخذها وجوههم وأيديهم، ووضعتُ أمامها مايقابلها من أسمَاء مثل:

«إذا رأيت شخصا ينظر إليك وهو يقبض عينيه كأنه سيغمضهما، فاتحا فمه إلى أن تبدو أسنانه وتميل جانبا شفتيه إلى جهتي خذيه، فقل: "إنه يضحك"، وإذا رأيتَ شخصا سادا فمه وهو يرسل نظرات حادة ووجهه منقبض فقل: "إنه قلق"، وما إلى ذلك...».

أمَّا الشخص الآخرُ، البعيد الذي كنته، فكان يأمرني بتعلم قواعِد السُّلوكِ والتصرُّفات الحسنة خِلسَة في مناطق نائية. ولأجل ذلك كنتُ أقطَعُ مسافاتٍ طويلة، كي لا يضبطني أحد المعَارف، إلى أن يقعَ بصري على فردين أو جماعة يتحدثون فأقتربُ منهم دُونَ أن يفطنوا، وآخذُ في مُراقبة حركاتهم، والإنصات إلى كلامِهم بمنتهى اليقظة والإنتباه لأختزن المشهدَ بكلِّ تفاصيله ويسهُل عليَّ تقليدُه فيما بعد...

*

*   *

اليوم لا تسعُني الدنيا فرحة. فقد عُوفيتُ من مَرَضِي منذ مدة. بوسعي الآن أن أخالط من الآخرين ما شئتُ، وأقوم بكل ما يقومونَ به من غير أن أشعرَ بنقص أو خَجل، وما يحول بيني وبين الخروج إلا كوني أشعر من حين لآخر بقلق من جراء السؤال التالي:

متى استعدتُ صحتي؟

كيفَ؟

ما الدليل على كوني قد عوفيتُ فعلا من المرض ولستُ أرزحُ الآن تحت وطأة مَرَض عُضَال آخر أشدَّ وأوهَنَ، هُو الشفاء؟

ما أن تسدل عليَّ هذه التساؤلات حجبَها القرمُزية حتى يعبث بوُجودي بحران: أحدهما في جزر مطلق، والآخر في مَدّ مطلق: الأول يقنعني بما لا مجالَ للشكِّ فيه بأنني قد عدتُ سويا، والدليلُ على ذلكَ هو انقشاع سُحبِ الأحزان التي ظلت تغلفني منذ لستُ أدري كم من وقتٍ ولا كيف ولا متى. غيْرَ أن الأكيد هو أنني لم أفطن ذاتَ يوم إلا وقد انحفرت هُوَّتان: إحداهما بيني وبين نفسي، وأخرَى بيني وبين الآخرينَ:

فأما التي انحفرت بيني وبين ذاتي فقد غرَّبتني عن نفسِي إلى حد أصبح معه جسدي ورطة حقيقية بحيث صرتُ أعرف أنني إنسانٌ - من خلال هيأة كتلة اللحم والعَظمِ والأطراف التي تكسوني - لكنني أعجز تمام العجزِ عن تشغيل هذا الإنسان بكيفيةٍ لا تلفت انتباه من

يحيطونَ بي. فأنا أقوم في الصَّباح وأحس بخفة تسري في العقل والبدن، فأقولُ: «يا له من صبح سعيد! اليوم ستنقشع سُحبُ مرضي، وأتحول إلى إنسان سَوي»، ثم أحشُو معدتي بالطعام، وأتدبر أمْرَ ارتِداءِ الملابس، والتخطيط لبرنامج أجَزِّي فيه الوقتَ. لكن بمدى توغلي في الزّمن تنغرس قدماي في القَلَق والألم، وأحسُّ كأن العالم الخارجي قَدَرٌ يَغلِي وأنا مُلقى بداخله، حيثما نقلتُ رجليَّ احترقتا، وحيثما وليتُ وجهي لم أر إلا غبارا وألما وموتا وظلاما، حتى إذا حَلَّ المساءُ انتابتني رغبة عارمة في وضع حد لحياتي، فأخطط لذلكَ، وأحشد في غرفتي عقاقير وحِبَالا وسكاكين وإبرا طويلة حادَّة وأنا عازم بما لا رجعة فيه على ألا يصبح اليوم الموالي إلاَّ وقد وضعت حبلا حَول عنقي أو بَقرتُ بطني، أو ولجتُ الغيبوبة الكبرى على إثر تناول خمس عُلب دواء أو ست، عازم بما لا رجعة فيه أن ألا يُمسِي علي المساء إلا وقد «أرَحتُ» هذه الجثة إلى الأبَد بإرقادها الرقدة الأبدية. لكنني لا أفطن إلا وقد قمتُ في الصَّبَاح المَوَالي وأنا أحس بخفَّة كبرى تسرِي في العقل والجسم، فأقول: «هُو ذَا يوم سعيد، حسنا فعلتَ عندما لم تضع حدّا لحياتك ليلة البارحة... فلو فعلتَ لكنتَ حرمتَ نفسك من التلذذ بطعم هذا الصَّبَاح الجميل...». والدليلُ على كوني عوفيتُ من مرضي هو أنني لم أعد أحسُّ بسعادةٍ مُفرطة في الصباح ولا برغبةٍ في وضْع حدٍّ لحياتي في المساء... صرتُ عاديا جدا كآلة تعملُ وفق نظامٍ وإيقاع قارَّين رتيبين لا يتغيران... أهذا معنى أن أكون إنسانا سويا؟ وإن كنتُ صرتُ بالفعل سَويا، فكيفَ أقنع الآخرين به؟

أما البحر الثاني، ف...، أيُّ حِبرٍ؟ عفوا! نسيتُ. كنتُ أهذي!

*

*   *

- كيف فقدتُ نفسي؟

- أعتقدُ أن كلَّ مأساتي كلها قد انطلقتْ من رغبتي تلك في أسر الكائنات والأشياء التِي تحيط بي وتقليد ما لا يُقلَّد. فما من إشارة أو حركة أو كلمة كنتُ أعيدُها إلا وكانت تثير سُخرية محادثي، كأن يُدير وجهه إلى الجهة الأخرَى أو يبصقَ على الأرض أو يُودِّعني بدعوى أن لديه أشغال ومَواعيد هامة، رغم أنني في جميعها كنتُ أحرصُ حرصا شديدا عَلى إعادة إخراجها بشكل مُطابق تماما لما لاحظتُها عليه لحظة الرَّصد. فكنتُ أقيسُ بدقة متناهية المسَافة التي يجبُ أن تفصلَ يدي ورجلي وعَيني وأنفي وفمِي عن يَدي مُحَادِثي ورجليه وأنفه وفمه، وأثبِّتُ لهجة كلامي، ورنة صوتي، ونظرتِي، وابتسَامتي وأنظرُ إلى عينيه بالطريقة ذاتها التي شاهَدتُ الآخرين يستعمِلونها، وأسعلُ كمَا سمعتهم يسعلون، وأمتعضُ كمَا رأيتهم يمتعضون، وأصطنعُ الغضبَ كما شاهدتهم يصطنعون... ففيما تقطرُ كلمات الآخرين مِن أفواههم كالعسَل فيتلقفها المتلقون بنهَم شديدٍ وهم يستزيدون، يَسيلُ الكلام مني ذميما مقرفا مقززا كقيح أو قرُوح، فينفضُّ القومُ من حَولِي لأجدني وحيدا مثل أجرب أو مسعور...

أيها الناسُ!

أرُوني هذه العلامة التي تتعرفون عليَّ بها جميعا بطريقة واحدة، فتتجاوزونني وتمضونَ تاركين إياي أتلظى بنيران الحرُوقِ الهجائية. لقد صَرَفتُ أحقابا وسنينا في تفتيش جسَدي إقليما إقليما، مَنزلا منزلا دُونَ أن أفلح في التعرُّف عليها. لم يُجدنِي في ذلك كتابٌ ولا قلمٌ ولا مرآة.

الكتاب؟!

آه من الكتاب الذي أنفقتُ في تدوينه ثلث سِني حياتي حَصدَ خلالها أسناني وأذاقني طعم ليالي طويلة بيضاء، قصصتُ فيها الأقلامَ من لحمي وكان المدادُ من دَمي.

عفوا! عفوا! فأنا أهذي.

*

*   *

لم أفطن مرَّة إلا وأنا في شجَار عنيف مع شخص يرتدِي سِروالا أزرق وقميصا أصفر. تحلَّق حولنَا قطيعٌ ضخم من الرِّجال والأطفال والنسَاء. لقد اعتقدت أن ذلك الفرد لم يكن إلا أنا فاستغربتُ من سيرنا مفترقين، ولذلك أمسكتُ به ملحا بالدعاء: «أنتَ هو أنا فتعالَ إلى حيث أنا ذاهبٌ». ردَّ الشخصُ مرارا بأنه لا يعرفني، إلا أنه كلما نطَق بكلامه عقَّبْتُ قائلا: «وإذن فانفتحْ حتى ألجَكَ، وأحُلَّ فيك فترى إلى أي حد ما أنتَ إلا أنا». أمام استغرَاب المتحلقين اضطررتُ لإخلاء سبيل صاحبي، والعودة إلى المنزل ملفوفا بسحَابة من الغم والخجل والصَّمت لقضاء عشرة أيام استولى عليَّ الرُّعب طيلتها، لأنني كنتُ موقنا بأنني

لم أكن إلا طيف نفسي. أما أنا وهيأتي فقد سُرقتا مِني أو ضاعتا، فكنتُ أصرف الساعات الطوال في التنقلِ بين غرف البيت وحجراتِ عقلي باحثا عني وأنا أنادِي: «أنا! أين أنت يا أنا؟ تعال يا أنا. لماذا انصرفتَ عني يا أنا؟...»، حتى إذا حلَّ اليوم العاشر اكتشفتُ بأعجوبةٍ أن الآخرينَ كانوا على صواب بينما كنتُ مخطئا: تذكرتُ الكتابَ الذي كتبته، فوجَدتُ في «باب الملابس» التنبيه الآتي:

«إذا أشكل عليك تمييز نفسك وسط أفراد يلبسونَ ما ترتديه نفسه فاحْتكِمْ إلى المرآة».

وقفتُ أمام المرآة فوجدتُ فعلا أن صاحب المشاجرة لم يكن هو أنا. هَل كانتْ هذه الحادثة إنذارا من «كيفَ تكونُ إنسانا سويا» أم لكمة عنيفة سَدَّدها إلي الكتاب نفسُه وأنا الآن إثرها صريع؟ مهما يكن من أمر، فأنا الآن أحملُ معي مرآة تلازمني أينما اتجهتُ، فحذار أن تعتقدوا أنني بنظري المتعاقب فيها أتجمَّلُ. فما أنا بأنثى ولا ذكر أو خنثى. أنا قاطع لحمِه من جسمه يَعجنه بعظمه ليهبكم هذا الذي تسمونه كلاما، يَهَبُكم نُصُوصا لا لُصُوصاً.

عفوا! عفوا! فأنا أهذي.

ثمَّ توالت الأعوام، فلم أفطن إلا وبذاكرتي خُرُومٌ. عرفتُ ذلك أول مرة لما صرفت أياما عشرة في صمت مطبق أسمعُ الكلام وأفهمُه دون أن أعرف بم أجيب: يقال لي: «ما اسمُك؟»، فأمكث مَشدوها، ويؤتاني بمذياع أو قلم ويُوَجَّهُ إلي السُّؤالُ: «ما اسم هذا؟» فأبقى ساكنا مَذهُولا أنظر في الفراغ. لا تصدقوهُم. لم أكن أيامها مريضا، ولم يشفني طبيبٌ عقليٌّ ولا محلِّلٌ نفساني ولا عرَّافَة أو فقيه. كلهم خَونَة.

وكلُّ ما حَدَثَ هو أنَّ عطبا صغيرا حدث في ذاكرتي فنسيتُ أنني كنتُ سجنتُ الأشياء والأسماء في كِتابي. ففي اليوم العاشر هوى عليَّ وحي الذكرى، فمددتُ يدي إلى الكتاب وأنا موقن بأنه لم يكن ديكا أو حمارا كما خيِّلَ إلي من قبل...

ولتفادي الوقوع ثانية في مِثل هذا النسيان كتبتُ صيغة: «عُدْ إلى الكِتَاب» في يدي ورِجلي وجبيني ومختلف الأمكنة التي أترَدَّدُ عليها. لكن مَا فائدة ذلكَ عندما تصير حياة امرئ مِثلي مجموعة حِبال متشابكة كلما عُقِدَ جزءٌ منها انفسخ الباقي؟... فذات يوم لم أفطن لنفسي إلا وأنا أتساءلُ: «ما مَعنى الكتاب؟»، حتى إذا انصرم شهرٌ ووجدته ألفيتُ ما دَوَّنتُهُ فيه من قبل شبيها بكتابة هِيروغليفية. فحينما كان بعضُهم يسألِني: «ما اسمك؟» كنتُ أعودُ إلى باب الاسم، فأجد أنه سبق لي أن عرَّفته على النحو التالي: «هو اللفظُ الموضوع على جوهر أو عرضٍ لتعيينه وتمييزه»، إلا أنني آخذُ في التَّساؤل:

«ومَا مَعنى "اللفظ"؟

ما معنى "الموضوعُ"؟

ما معنى "جوهر"؟

ما معنى "عَرَض"؟

ما معنى "تعيين"؟

ما معنى "تمييز"؟»...

فأضطر لاستشارة أبوابِ مجموعِ هذه الكلماتِ. وفي كلِّ مرَّة كانت دَائرة المفرداتِ المبهمةِ تتسعُ إلى أن قعدتُ مشدوها ومَا مِن شَيء يقع

عليه بَصري إلا وأناديه: «أنا!». ولما لم يُجبني أيُّ شيءٍ خَرجتُ إلى الشَّارعِ وأنا أصرُخ:

«أينَ أنا؟

من أنا؟».

والآنَ مَن أنا؟ أينَ أنا؟ ما هَذِه الأوعيَة والقوَارير التي تحاصرُني؟ أينَ الكتابُ؟ أين البَحرُ؟ أين العربَة؟ أينَ عقلي؟ أين الحِبرُ؟ أين الفَجرُ؟ أين الجمرُ؟ حَذار! افسَحُوا لنا الطّريقَ! ابعدُوا! فبعدَ لحظاتٍ سأنفجرُ.

رَأْسٌ بِسِعَةِ ٱلْكَوْنِ

الآنَ وقد فَرَّت بي اللغَة إلى حيث كشفتُ لكم عمَّا كشفتُه من شخصي فإنني أشعرُ بندم وخجلٍ شديدَين أنا موقنٌ بأنهما يمثلان العقبتين الوحيدتين اللتان تحولانِ بيني وبين استئنافِ حياتي السَّوية. فقَدْ عوفيتُ من مرَضي منذ زمن طويلٍ، لكن كلما عزمتُ على الظهُور بينكم أقعَدَنِي وِزْرُ التصرّفات التي كانت تحركني كدُمية لما كنتُ مريضا. ثم إنَّ ما كتبته عن نفسي قد انطبعَ على جسَدي إلى الأبد بحيث لن يستحيلَ عليَّ محوه فحسب، بل وسيجعل مني كذلكَ قبلة لفضول النّاظرين الذين - إنْ أخرُج - لن يَكفوا عن مُطاردتي بأبصَارهِم منتظرين أن أتمايَل في مشيتي كالسَّكران، أو أصرُخ في الأشياء قاطِبة وأنا أسألها: «منْ أنا وماذا أفعل هنا؟»، أو أحَوِّلَ طوابير السَّيارات إلى جوقةٍ صاخبة، أو ألح في الطلب من بعضهم بأن ينفتحَ كي أحُلَّ فيه لأريه إلى أي حدِّ ليس هُو إلا أنا ولستُ إلا إياه... وحيث إني واثقٌ من أنَّ أيَّ شيء من مِثل هذه التصرُّفات لن يصدُر عني على الإطلاق فالقومُ لشدَّة وُقوعهم ضَحايا أقوالي وكتاباتي السَّابقة سينتهونَ إلى اعتبار عين سِوَايَتِي هِي عينُ جنوني، وبذلكَ فإن أبتسِم يخيَّل إليهم أن ابتسامتي قهقهة، وإن ألفف أحدَهُم بنظرة وديعَة مُتوسِّلة يُطلق ساقيه للرِّيح حَاسبا نظرتي إليه تمهيدا لشنِّ عُدوان جسَدِيٍّ عليه...

- لكنْ، يا مستر يَعقوب، من أجبركَ على كتابَة ما كتبتُهُ؟

- بل أأنا الذي كتبتُ ما كتب أم أنَّ أحمدَ آخر أو محمدا آخر هما اللذان كتباه؟

- أم ترى كتابة مَّا هي التي استغلتْ طيبوبتكَ فقادتكَ إلى هَذه الورطة...

- إن كنتُ أنا الكاتب فهو المجنون، وإن كان هو الكاتب فهي المجنونة...

- من هي؟

- الله أعلم!

- والحالة هذه، هل يُعقل أن أتحمَّل عواقبَ جنونه أو جنونها؟ هل يعقل أن أقعَ ضحية كتابة لم أكتبها قط؟

- لكن من سَيصدِّق هَذا الكلام؟

- لا أحَد.

وإذن، فلنواصل حَديث العشب، ولنَعُدْ إلى مبدأ كلامنا:

الآن وقد فرَّتْ بي اللغة إلى حيث مَا أتراءى لكم عَليه الآن، حَانَ الوقتُ لكي أظهر لكم أنني لستُ ساذجا بالقدر الذي خيِّلَ إليكم حتّى اليوم. فأنا مَعشرٌ اتخذنا من لحم وعظم من يخاطِبكم الآن قلعةً احتمينا بها منا لنلقِّنكُم من الدُّروس ما أعماكم عَن استخلاصه كثرةُ توالدكُم كالحشرات وانشغالكم بتفاهاتٍ كالحلاقة، والجماع، والأكلِ، والشُّربِ، وإفراغ البطن في مَراحيض... انصِتوا جيدا حفظكم الله وَرعاكم:

إياكم ومغبَّة محاولة فهم ما كنتُ كتبتُه لكم وتراءيتُ لكم به!
فهو لا يُفهَم لأنني نفسي لا أعرفه، فأحرى أن يعرفه هو أو تعرفه هي. كلُّ ما أدريه هُو أنني كتبتُ ما لا يعدو مجرد أمانَة نقلتُها إليكم كما نقلني من نفضتُ يدي من مَعرفته. وإن لم يكن بد من الفهم فافعَلوا مثلي: اغرسُوا أشجارا في رُؤوسِكم، واتخِذوا من الليل نظارَتين. اخلعُوا عقولكم والقوا بأنفسِكم في بحر الكَلام. وآنئذ سَوف لن تفطنُوا لأنفسِكم إلاَّ وأنتم تضحكونَ بالدُّموع، وتموتون وأنتم أحيَاء، وتعيشُون في حِداد دائم، وتنكشفُ عنكم حُجُب الوَهم فترون المنازل قبُورا، والملابسَ أكفانا، والأجسَاد عظاما، وتضعون حِدادا مزمنا، وتبكونَ يوميا على مَوْتَى ما رأتهم عيونكم قَطُّ، وتجيبون عَن السَّائل ب: «لا» و«نعم»، ويلقاكُم المرءُ في الطريق فيسألكم: «ألستَ فُلانا بن فلان؟»، فتجيبُونه: «نعم أنا هُو فلان بن فلان. إني أعرفُني جيّدا لكنَّني افتقدتُنِي منذ زمن طَويل، ومُنذ أن فقدتُ نفسي وأنا أبحثُ عنّي في كلِّ مكان دُونَ أن أجدَني، فهلا دللتني عليَّ؟»، ثمَّ تتركون السَّائلَ مشدوها وتواصِلون سيركم باحثين عنكُم دون أن تعثروا عليكُم...

آنئذٍ ستنحَلُّ عُقَدُ ألسنتكم فيصرخُ كلكم في وجه كُلّكُم:

«لقد أعياني طول المقَام بينكم فلا أنا استرحتُ ولا أنتم.

فيا رَحَّال! افرغ هذه القمَامة منا وأرِحنا جميعا!»...

آنئذٍ سوف ترَون أن للكلام وجها وظهراً وبطناً وقلباً، وأنَّ الكلمَات كالبشر فيها الحدباءُ والصَّلعاءُ والعوراءُ والعوجَاءُ، فما ينتهي أحدُكُم من تقليب إحدَاها وإرسالها، بعد أن يطمئنَّ إلى أنها ليسَت إلا هي، حتّى ترتدَّ إليه سائلةً:

«من أنا؟

ماذا أفعل هنا؟».

والآنَ من أنا؟ وماذا أفعل هُنا؟

يا أيها الناسُ!

إني غريق تتقاذفه أمواجُ الفكره المتلاطمة.

فشُدُّوا بيدي، عافاكم، أو هاتوني عَصا كي أتحَسَّسَ بها التمثلَ الصَّحيحَ لنفسِي وللعَالم.

*

*   *

كلاَّ!

لاتشفقوا عليَّ أو تهرعوا لنجدتي. فأنتم إلى الشَّفقة والنجدة أحوجُ أيهَا الخونة! لئن تعطوني عَصا لأكسِّرَنَّها على ظُهوركم جميعا لأنني لم أصدِر أيَّ كلمةٍ أو حَركةٍ حتى اليوم إلا بعدَ تقليبها على أبعادها الثمانية مرارا وتكرارا حاسِبا ألف حسابٍ لما ستخلفه في نفسِي قبل أن تخلفه فيكم. فهلْ تقومون أنتم بهذا؟ هه؟ تكلموا! لماذا أنتم صامتون؟!

إنني لأتحدَّى العالم أجمعَ بأنّني أعظم وأنبلَ وأذكى رجُل عرفته البشرية على الإطلاق، بل أثرى رجُلٍ على وجه البرية بما أملكُه من ثروات فكرٍ وأزمنةٍ طائلة. وأؤكدُ لكم منذ الآن ثم أؤكدُ بأنَّ شخصية مِثلي إن هي إلا فلتة لم يَجُدْ بهَا التاريخ إلا مرة واحدة مجسدة فيَّ

بالضبط. وعمَّا قريبٍ سأقدِّم لكم الدليل الملمُوس على ذلكَ. سَأصوغ لكم تمثلا صحيحا للعالم يضعُكم في عُمْق زمَن قادمٍ لاريبَ فيه ما أنتم وحضَارتكم، منظورا إليكما منه، إلا بقايا هياكل وجماجم مُترسبة تحتَ طبقاتِ عصرٍ حجري بائد. تمثلا ستدركون عبره أن النظَام الشَّمسِيَّ برُمَّتِهِ لا يعدو مجرد دُولابٍ صغير وسط آلة أعظم أو نفاية صَغيرة قابعة داخل قمامة مُلقاة في صَحراء المطلق. وسأنطَلق في ذلكَ من وضع تصميمٍ لمعمل دَجَاجٍ يشتغلُ من تلقاء نفسه بطريقة تصِل حُقول الحبُوب بالسَّكَاكِينِ، وبيض الدَّجاج بآبار النفط، وعَلفه بأمعائكم...

حذار ثم حذار أن ترتكبوا مغبَّة السُّخرية من هذا الوَحي الذي ألقيه عليكم! فأنا لا أنطق باعتباري فرداً، بل بصفتي حشداً من البشر لا يتلفظ بالكلِمة الواحدة إلا بعد حصول إجماع بَين الأشخاص واللغات القاطنة فيَّ. وكمْ هي كثيرة ومتشدِّدَّة الأقوام والألسن المقيمة بداخلي، بحيث إنَّ اختِصامها وتسَارعها إلى سبق بعضها بعضا يُوَلِّدُ بداخلي حُرُوبا لا أنجو من قساوتها إلا بالصَّمت. وهَذا هو السَّبب في صومي عن الكلام شُهورا وأعواما. فافهمُوني إذن ولا تزعجوني بنباحِكم عندما أكونُ صُمّاً بُكماً بينكم لأنَّني أكون حينئذٍ غارقا في الإنصات إلينا. ولستُ في ذلك إلا وفيا لما أوصَاني به أبي قبل موتِه. أقصدُ أبي الحقيقي وليسَ شبه الخروف ذاك الذي كانَ يؤتاني به، رفقة امرأة، لما كنتُ نزيلا بمستشفى الأمرَاض العقليَّة، ثم يقال لي: «من هذان؟»، فأعجزُ عن الجواب، فيقَالُ لي: «إنما هَذا أبوك وهَذه أمك!» إلى أن

فطنتُ للمؤامرة التِي كانت تحَاكُ ضِدِّي فأسقطتُ رؤوس مُدبّرِيهَا جميعا...

*

*   *

كانَ أبي عالما كبيرا، لكنَّ فرط عِلْمِهِ رماهُ في أصقاع الجهل العُظمى. فقد كان يلتهم أسْبوعيا رُكاما من الكتب ويتماهَى مع كلِّ ما يَقرأ إلى أن التبَسَ عليه الأمرُ فما عاد يعرفُ هل المصَنفُ قسمة مفقودة منه أم أنه قسمة ضائعة مِن الكتاب... فقالَ لي ذات يَوم: «أبنيَّ أينَا الآخر: أأنتَ أنا أم أنا أنت؟»، وقالَ مرَّة أخرَى: «في أي فقرةٍ نحنُ مِنَ الكتاب يا بُنَيَّ؟»، ثم فَصَّلَ ذلك كلَّهُ في يوم آخر فأسرَّ لِي:

«- أبُنَيَّ، لقد قرأتُ من الكتب ما لا يحيط به عَدٌّ ولا حَصْرٌ، لكن ذلك كله ما أفادني بشيء. فهنا، في رأسي، تقبع آلاف المخطوطات والكتب والرسائل، لكنها لا تتناسل ولا تخلفُ كتبا أخرى. وهذا ما يجعلها حزينة مقدار حزني ويمنعني من أصير عالما كبيرا. فأنا أحفظ عن ظهر قلب - دون قَصْدٍ أو بذل مجهودٍ - كُل ما قرأته حتى الآن، وبمقدرتي أن أقِيء النصوص والفقرات كما يقيء المرء الطعام، لكنني عاجز تماما عن تبين الصلات فيما بينها حتى عندما يتعلق الأمر بكتابين أخوين أو بكتاب أبٍ وآخرين ابنين له. فهل أدركتَ الآن معنى أن تصير عالما؟».

- نعم، لقد أدركتُه الآن يا أبي. أن تصبحَ عالما هو أن لا تفطن لنفسك إلا وقد تحولتَ إلى شريطٍ كل ما يستطيعُ القيام به هو الترديد الآلي لكلِّ ما سَجَّله فيكَ من أنتَ جاهِله دون أن تضيفَ إليه شيئا أو تنقصُه منه. وعليه، فمن اعتقدَ منكم أن ما أكتبُهُ الآن عِلمٌ أو وحيٌ فهو خائنٌ، لأنَّ العِلم - كمَا قال أبي – لا يخلُو أن يكون أحد اثنين: إما أنه مُعْتَقَلٌ بداخلك أو أنَّكَ مُعْتَقَلٌ بداخله. لا أحد يفلتُ من الآخر أو يفر منه. فلو كتبتُ عِلما لجازفتُ بقطع رأسي أو رجلي كَي أرفقه بالنّصِّ. هيا، إذن! اذهبُوا إلى المكتباتِ والأكشاك، واطلبُوا كتبا مرفوقة بقطعٍ من أجسَادِ أصحَابها. إن وجدتمُوها فتعالوا اقطعوا رأسِي وإن لم تجدوها فايقِنوا أن أكثر النّاس علما أشدهم شبها بالقِرَدَة، وأن لا عِلمَ يروُجُ بينكم إلا عِلْم القِرَدَة، وأن كتبكم لا تبدي من النصوص مقدار ما تخفي من اللصُوص.

وبعدُ،

فإنِّي أنا، وأنا لسْتُ أنا،

أحلمُ بأشرطةٍ ما أن تُسْمِعكم ما سُجِّل فيكم حتى توسعكم ركلا ولكماً وهي تسألكم معنفة: «ما مَعنى هذا؟ ما معنى هذا؟»، كلما عَجزتم عن الإجابة زادتكمْ ركلا ولكما إلى أن تفيقوا من سُباتكم العميق فتدركوا أنَّ الكون برمته إن هو إلا رُكَامٌ من الأجوبة المحتملة عن سُؤال لم يُصَغْ بعد، وأنكم لم تُسَاقوا إلى هُنا لتأكلوا وتشربوا وتنَاموا وتتناكحوا وتتوالدوا وتموتوا كقطعان البهائم، بلْ جيء بكم خصِّيصا لكي تجيبوا عن السُّؤال التّالي: «ما هُو السؤال الذي كان

الكون، وكنتم معَه، جوابا محتملا عنه؟». فعن أيِّ سُؤال يجيب وُجود هذا الكون؟ بلْ من سَيطرحِ هذا السؤال وعلى من سَيطرَحه؟

وقبلُ،

فحين تُدرِكُونَ أنَّ يقينَ وُجود هذا الكَون لا يعدُو مجرد وهم راسخ في أذهانكم، وأن سَفينةَ نوح رمزٌ كونيٌّ، وأن لأجسادِكم أبعادا لا تنكشفُ إلا بإدمَان السِّياقة ومُعاشرة القطط، وأنَّ السَّمعَ وهْمٌ، والبصرَ عاهة، والمشيَ وقوفٌ، والكلامَ صمتٌ، واليقظةَ نومٌ، والحياةَ موتٌ... آنذاكَ فقط سَتكونوا قد طرَحتم نصفَ السُّؤال المطرُوح عليكم.

*

* *

عندما لم يُجْدِنِي نفعا الكتابُ الذي ألَّفتُه لسجن العَالم وحَركَات النّاس فطنَ أفرادُ عائلتي إلى مرضي فوضَعَنا المرَضُ في مقام تواصُلٍ مُستحيل: فما من كلمة كان يُلقى بها إلي إلا وكانت تهوَى على رأسي ككيس رَمل أو إسمنتٍ وتصدِّعُ جمجمتي كضربة مطرقة قاسِية. وبدلا من الإجابة عما كان يلقى إلي كنتُ أشردُ في مكوناته التي كانتْ لا تبدو لي - مهما قلَّت - إلا عالما شاسعا، أتيهُ فيه أحقابا وسنينا. وهكَذا، ففيما كانَ الآخرُون ينتظرونَ مني إجابة كنتُ أغرقُ في التأمُّل صَارفا ساعاتٍ طويلة فلا أفهم بَعضا من كلامِهم إلا بعدَ مُرُور نصف اليَوم أو أكثر خِلاله يكونوا هم قدْ تراشقوا في شأني بكلامٍ كثير. بعد ذلك فقط

أجيبُهُمْ عن قول الصباح فيكون السياق قد فاتني، فيحدجُونني بنظراتٍ غريبة مُعاتبة متأسِّفة. ولم أفطن للفرْق الذي كان قد انحفرَ بيني وبينهُم إلا بَعد انصرام أشهرٍ سبعة قضيتها كاملة في استقبَال كائناتٍ كانت تنزل إليَّ من أكوان أخرى خصِّيصا لتفاوضني حَول الصِّيغَة الأليق لإعادةِ تشكيل هَذا الكون وتأثيثه بعد الإطاحة بِكم وحَجبكم منه. والحق أنَّه لو لم يقع خلافٌ بسيطٌ بيني وبين تلك المخلوقات لحظة الحسمِ في الترتيبات النهائية لإقامتنا القيامة، استغلَّته أمي فأمسَكتني من يَدِي ملحقة أضرَارا بليغة بحساباتي الدقيقة، لا زَالت آثارها حاضرةً في دمَاغي بشكلٍ قرُوح مُتموِّجَة، لو لم يقع ذلك لكنتُ تمطَّطتُ ومَا كنتم الآن سِوى أفاعي تائهة في فيافي جسَدي أو أسماكَ ضالة في طُوفان فكري...

من اعتقد أنَّ أمِّي قد خلَّصَتْهُ مني فقد ارتكبَ معصية كبرى لأنَّ والدَتِي ماتت وتكَلَّسَتْ عظامها في القبر قبل أن أولَدَ، ولأنَّ سُكان الأكوَان الأخرى مَا احتجبُوا إلا لإحضار أدواتٍ نسَوها في كوكب عُطارد. عما قريبٍ سنستأنفُ مفاوضاتنا، ونوقِّعُ ميثاقا نحجبُ بموجبه الشَّمس، ونجف البِحار، ونحِلَّ محلَّكم كائنات ذوَات أعين سَبع، وأرجل خمس، ليسَ فيها ذكر ولا أنثى ولا خنثى، لا تَعرف نوما ولا كلاما ولا طعاما ولا شرابا، لانشِغالها بفرحها المنتشي الدَّائم...

*

* *

لما انصرمَت الأشهُر السَّبعة أَفَقتُ من النّوم، وقلتُ:
«أنا في وضع لا يخلو من أحد أمرين: فإمَّا أن هؤلاء الذين يحيطون بي يملكون من الذكاء والعبقرية ما يتيح لهم أن يستوعبوا في وقت وجيز أضعافا مضاعفة مما لا أستوعِبُهُ إلا بعد انصرام أوقات طوال».

ولما توصَّلْتُ إلى هذه الحقيقة التفتُّ إلى كلِّ من كانوا يحيطونَ بي أو ينشغلون لمرضي، ثمَّ قلتُ لهم بخشوعٍ وابتهالٍ:
«ما أنتم إلا آلهة، فسبحانكُم ثم سبحانكم!».

... أو أنهم من البلادة والسذاجة وقصر النظر بحيث بدل استكشاف أبعاد الكلمة الواحدة التي لا يُضَاهِي شساعتها إلا الكون، بدل ذلك يعمدون إلى سجنها داخل علب ووزنها بموازين.
»

ولما أشرَقت في ذهني هذه الحقيقة عدتُ فالتفتُّ إليهم وقلتُ في زَهو وكبرياء: «سُبحاني ثم سُبحاني، فلا أنا إلا أنا!».

إلا أنني الآن فقط أدرِك حجم البلادة التي كانت تُنطِقُنِي:

أمَا كنتُ بحقيقتي وكلماتي تلكَ قد وضعتُ نفسي في الطَّريق المسدود لِوضْعِي ضرورة أن يكون الله بيني وبين كلّ من كانت تَربطني بهم علاقة بحيث إمَّا أكونه أو يكونوا إياه؟ والآن وقد انقشعَت عَن ذهني تلكَ الغيُوم، فهَل من الضَّرُوري أن يكُونَ أو يُكَان؟ إذا لم يكن من الضَّروري، فمن وضَع في ذهني ذلك اليَقين؟ ومَا معنى أن يُوضع؟

*

*   *

لما تعاظمَ وحيي وصارت مدرَّجاتُ عقلي أصغر من أن تَسَعَ عُشُرَ عُشُرَ عُشُرَ عُشُرٍ مما يحُط فيها كل ثانية من أسرَاب الأفكار والأحاسِيس والخواطر، أطلقتُ ضحكة مُدوية وصَرخة عظمى ثمَّ احتميتُ بأمِّي. بَكت كثيرا، ثمَّ أمسكتني من يدِي، وأخرَجتني مِن المنزل وهيَ تترنحُ قائلة: «تعَال مَعِي يا وَلدِي، فقد مرضتَ!»... توغلتْ بي في طرقاتٍ ومسالك مجهُولة. سألتها: «إلى أين؟». بَخلت عليَّ بمجرد إجابة، غير أنني سرعان ما علمتُ وِجْهَتَهَا، شُلَّتْ قدماي وطار قلبي خفقانا: لقد دبَّرَتْ مؤامرة ضدِّي بتواطؤ مع أبي وإخوَتي للتّخلص مني خشية أن يكتشفَ الناس في الخارج ذكَائي الخارق - الذي عَجَز أهلي عن مُجاراة ما أمْلاه عليَّ من أقوال وسلوكاتٍ - فيتبنونه نمطا للتفكير والوجودِ وينبذون كل من يعجز عنْ مواكبته. أمي الآن ماضيةٌ بي إلى غابة أو مكان قفر لكي تتركني فيه وتنسلَّ خفية، ثم تطلق ساقيها للريح قافلة للمنزل. أحَاول التخلصِ من قبضتها، أحَاول انتشال يَدِي من يدها بعنفٍ وأنا أصرُخ بأعلى صَوتي: «أعيدِيني إلى المنزل، فأنا لستُ يُوسُفَ! أعيدِيني إلى المنزل، فأنا لستُ يَعقوبَ!»، غير أنها كانت لاصقة بي كقدر مَسعور. فبقدرِ ما كنتُ أحاولُ سحْب يَدِي بقوة كانت هيَ تضاعِف من قوة إمساكها بي، وبقدر ما كانَ شلل قدمي يُسقِطنِي على الأرضِ كانت هي تُنهضني بقوة وتجبرُني على استئنافِ المسير إلى أن تحلق حولنا حشدٌ

من أهل الفضُول فكان ما كان من نبوءاتي وخطبِي المشرقة التي رَسَّخَت في ذهني الحقيقة الآتية:

كان أهلي يُريدون فعلا التخلصَ مني، لكن ليسَ لفرط ذكائي، وإنما ليأسهم من إمكانِ إعادتي إلى مُستوى من التفكير والتَّواصُل مماثل لمستواهم، إذ لما يئسوا من ذلك ما عادوا يَرونَ فيَّ أكثر من كيس خسَارة يلتهمُ الطعَام ويُعيد إخراجه دُونَ أن ينتجَ شيئا، فأرادُوا التخلصَ مني. آنذاك أيقنتُ بأنني لم أكنْ أعظم وأنبل وأذكى رجُل عرفتهُ البشرية، بل كنتُ مجرَّد طفل صغير يرزح تحت قبضة أمٍّ شرسة قاسية. ولذلكَ أخذتُ أحاولُ عبثا التخلص منهَا وأنا أتوسَّل إليهَا مُبتهلا: «يا أمِّي! عمَّا قريبٍ سأتحولُ إلى حُقول زَرع وأشجار فواكه. يَا أمي! عمَّا قريب سيَنزَرِعُ ويَنغَرسُ كل ما أكلته. فأعيديني إلى المنزل!»، لكنها بدَلا مِن أن تعيدني إلى البَيتِ لفظتني كنفاية في صَحراء سأعرفُ فيمَا بعد أنها كانت تدعَى «مستشفى الأمراض العَقلية». ثم انسلَّت إلى الدَّار هَادئة دُون أن تَكترث لمقامِي في الجحيم التي زجَّتْ بي فيها...

في المسْتشفى هَوَى عَلي من عُلب الأقراصِ، وآلام الحقن، وسياطِ الممَرّضين، واستِنطاقات الأطباء، وترنحات اللغة ما جعَل البقية المتبقاةِ من عَقلي تتعطّلُ، ورأسي ينتفخ إلى أن صَار أكبر مِن أن يقوَى جسَدي على حمله لأنه أصبحَ بسِعة هذا الكون. ولذلكَ هَويتُ على الفِراش حيث قضيتُ لستُ أدري كم من شهور أو أعوام في التسَاؤل عبثا عن سَبب مَرضِي: «متى كان مَبدأ ما أنا غارقٌ فيه الآن؟ مَن أنزلني إلى قرارةِ هذه البئر؟ بل أمولودٌ أنا أم مازلتُ جنينا في بَطن أمِّي؟...» ولم يكن ينتشلني من أسئلتي تلكَ إلا وقع حَوافر تنتهي إلى

غرفتي فيُحيط بسَريري قومٌ يُقدَّم لي اثنان منهم شِبهُ خرُوفين ثم يُوَجَّه إليَّ السؤال: «أتعرفُ من هَذين؟»، فأتفرَّسُ في وجهَيهمَا مليّا دون أن أتوصَّل إلى جواب، فيُقَالُ لي:«إنما هذا أبُوكَ وهذه أمُّكَ!». وآنذاك كنتُ أصرُخ بأعلى صَوتي:

«لكن، أيها الخونة! إلى أين أنتم فارين بقلمي بعد كلّ ما حكيتُه لكم عني؟ أتنتظرون أن أحدثكم عن كيف فطنتُ إلى المؤامَرَة التي كانت تُحَاك ضدِّي وأسقطتُ رؤوس مُدَبّرِيهَا، وعَن حركاتِي ونبوءاتِي وفتوحاتي المقدسة في المستشفى؟ كلا، كلا! أبدا، أبدا! لن يفر بي القلم هذه المرة! لقد عوفيتُ من مرضي وأقلعتُ عن الهذيان منذ زمن طويل. ألم أحمل القلم منذ لحظات خصيصا لكي أقول لكم إنني قد استعدتُ عافيتي العقلية والنفسية منذ وقت طويل، وما يحول بيني وبين استئناف حياتي السوية والظهور بينكم إلا وِزْرُ التصرفات التي كانت تعبث بي وتحركني كدُميةٍ عندما كنتُ مريضا فضلا عن أنَّ ما كتبته عن نفسي قد انطبع على جسدي إلى الأبد بحيث لن يستحيل علي محوه فحسب، بل وسيجعل مني أيضا قبلَة لفضول الناظرين...؟. فلا تحاولوا التعرُّفَ عليَّ أو مطاردتي بأبصاركم. أنا الآن محتجبٌ لا أخرجُ إلا بهيأة امرأة. أَوَ لابُدَّ من التعرُّف عليَّ؟ هيا إذن. انصِبُوا حَوَاجِزَ في الطرقات وفتشوا النسَاء واحدةً واحدةً. لن يجديكم ذلك في شيء، لأنني قلبتُ موازينكُم وحطمتُ أقانيمكم مُذْ كنتُ في بطن أمّي. فبين النساء منذ الآن رجُلٌ، وبين الرَّجُل الذي أنا إياه توجدُ مجموع النسَاء. وضوحا أكثر؟ لا امرأة ولا رجل! فما

من أنثى إلا وفيها شيءٌ مني، وما من ذكر إلا وفيه شيءٌ منها، ما يفرِّقُ بينهما سوى لِحْيَةٍ أحملها في وجهي وتحملها في حِجْرِهَا. لذلكَ، وفي انتظار إعادة تشكيل هذا الكون وتأثيثه بعد الإطاحة بكم وحَجبِكُم منه، أنا لا أضاجعُ الآن إلا الأشباح التي تنزلُ عَليَّ خِصِّيصا مِن أكوان أخرى»...


طُوفَانُ الفِكْرِ

مَا عاد يَربط جسَدي بي وبكم سِوى جثة تدعُونها إنسانا فيما أصرفُ مجهودا دينصُوريا لإيجاد مجرَّد تسمية لها مُلائمة، فأحرى القدرة على تحمُّل ثقل وطأتها وطول إقَامتها عندِي بدُون اسْتئذان ولا سَابق إعلام؟ أتستحملون أنتم جُثتكم؟ هِه؟ تكلّموا! لماذا أنتم صَامتون؟

أنا الآنَ من لا أحدَ منَّا يعرف الآخر. أنَا الآخرُ الذي يبحَث عني ولا يجدُ لي أثرا فيمسكُ القلم ليقتفي أثري بتدوينِ هذا الوَحي الذي يُنزَّلُ عليه دقيقة قبلَ شُرُوق الشَّمس وثانية بعدَ غرُوبها، ويقضي اليوم بكامله في فكِّ رُمُوزِ ما يُلْقَى إليه، حتى إذا فهمَ بعضا منها بحثَ عن قلم ووَرقة وراح يدوِّنها على نحو مَا يفعَله الآنَ...

أنا الآن مجرَّد وعاء يشبهُ كيس جلدٍ آدَمي، جُثة مُمتلئَة بالدِّماء المتخثِّرة، والعظام المهشَّمة، والصُّرَاخ المرعِب، والكلمَاتِ الجريحة، والحرائق المهوِلة التي نجمت عن اقتتال اللغَة بداخلي حيث الكلمة تصرعُ أختها في حربٍ ضارية لا هَوادة فيها ولا شَفقة. إن لم تأخذ حذرك تفقأ عينُك، أو يُقطَع رأسُك...

- هيَّا تكلم يا أحمد إن استعطتَ للغة سبيلا...

- بل أأحمد أنت أم محمَّد؟

- أنا يوسف.

- لا يهمُّ.

- ويعقوب؟!

- لا يهم!

- وإذن، فلنواصلْ هَذَيان عُشبنا البريِّ صامتين.

ما أخطو خطوة خارجَ البيت حتى تتأهب عظامِي للتفسخ، ودمي للسَّيلان، ورأسي للتبخّر... وهَذا هو السَّبب في اعتصَامي بالبيتِ طيلة السَّنوات العشر المنصرَمة ومُواصَلة ملازمتي هذه المائدَة إلى الآن. فقبل أن أكتشفَ هذا الأمر كنتُ أكون سَائرا في الطّريق فتقع عيني على عين، أو قدمي على قدم، أو رَأسي على رأسٍ، أو كبدٍ، أو كيس دمٍ مُلقى على الأرض، فأحمله، وأواصِلُ سيري حتى إذا دخلتُ إلى المنزل وجلستُ مُدَّةً، ثم هَممتُ بالوقوف لم أقوَ على النهُوض فأفطنُ آنذاك إلى أن إحدَى قدمي أو عيني هيَ التي اقتطعت مني أو فقئتْ، فأقضي أياما وليالي طويلة بلاَ نوم ولا طعام ولا شرَاب أبحث فيهَا عن أشياء ثلاثة: السَّبب الذِي من أجله بُتِرَ مني ذلكَ العُضو، ومن قام بعملية القطع، والسُّلطة التي خوَّلَت له حقَّ قطعه ثم الوقت والكيفية التي أنجزَ بها ذَلك. ولحظة أقف عَلى الحقيقة فقط أتمكنَ من استئنافِ الخرُوج.

أيها الإنسَان بداخلي! أتظنُّ أني من الغبَاوة بحيثُ لم أفطن إلى تمويهك عليَّ وتمرير نفسك باعتبارك أنا؟ أخطأتَ الخطأ كله إن ظننتَ ذلك. هيهَات هَيهات أن تكونَنِي أو أكونَكَ. قريبا جدّا سألحق بك العُقوبة الكبرى. سأفقأ عينيكَ، وأخلع قدميك، وأخرجُ منكَ المعدَة، والطّحَال، والقلب، والكليتين، والكبدَ، والرئتين، وأنشرُ ذلك كله في حَبلٍ، كما

ينشرُ المرءُ غسيله، كي أتيح لأعضائي البَاطنية أن تستنشق قسطا منَ الأكسيجين. فمجَاري الدَّم بداخلي، والدِّماغ، والقلبُ، والكبدُ، والأحشاءُ...، كلٌّ قد جَفَّ واختنق وتلوث بدُخان الحرائق المهولة التي يثيرُها اشتعالُ حُرُوفِكم بدَواخلي.

عندما أكونُ سائرا في الطّرقات يهطلُ مني الكلام مدرارا، غير أنه يسألكم ويسألني ولا مجيب، فمَاذا أقولُ؟ ما أغبَاكم أم ما أغبانا؟ فأنا لستَ أنتم، وأنتم لسْنَا نَحْنُ، ونحنُ لستُمْ أنا، وأنا لستَ أنا، فما هذا؟ أين هو؟! لقد تكلَّمَنِي الكلامُ وأعادَ تكلمي مِرارا وتكرارا، أياما وليالي، أوَ لَم يَفهَمكم أحدٌ مِنكم بعد؟ ألا ما أغباكم ثمَّ ما أغباكم!. ولرفع هذه الغباوة عنكم فسَوف آتي. نعم سَوف آتي. أنا آتٍ. آتٍ، لا ريب فيَّ. فترقبوا نزولي إلى المزبلةِ البشريَّةِ، مَزبلتكم، حيث سَأنبش صَفحة الأرض ليلَ نهار، بِحَوافري وأظافري، بحثا عن عظامِكم المهشَّمَة، ولحومكم النتنة، وأمعائكم الطّازجة، ودمائكم الفوَّارة والمتخثرة كي ألتهمَا في طقوس ولائمية أكمِلُ بها بهجة ما أنا عَليه منذ عشرين سَنة، أحملهُ ولا أفهمُه، أترَاه يَفهَمُني أو يُفهمُني؟ هه؟!

من لم يصدِّق قولي أو يعتقد أني أهذي فهو عَاهرٌ، مُتَّهَمٌ بالخيانة العُظمى. ومن ظنَّ أني مريض فهُو أحمق. ومن اعتقدَ أن بي خبَلٌ أو خَلل فهو نائمٌ نوم السلحفاة أو الفيل!. لقد قلتُ هذا الكلام وأعدته وكرَّرْتُه وها أنا أعيدُه للمرَّة المليون: إنني لا أجازف بإطلاقِ الكلام على عَواهنه. فأنا لا أقبلُ ما ينتهي إليَّ من الكَلمات إلا بعد خوض حُروب ضارية يتحوَّل جسَدي معها إلى ساحة اقتتال ما أفظَع حَرب أمامها سِوى تفاهةٍ تثيرُ الضَّحكَ والشَّفَقَة. هل عَرفتم لماذا؟

لسَببين:

الأول: كوني أتحرَّك داخلَ حَقلين بصريين متعارضين. فلعينَيَّ تكوينٌ من العسير الإطاحَة (بَدل الإحاطة) به أو فهمِه، لأنَّ ذلك يتطلبُ توظيف مُعطيات بيولوجية (علاقة تكوين دِماغي بتشريح عيني)، وأخرَى فيزيائية (البصريات)، وهَندسية (الفضَاءات التي أتمكنُ من احتوائها ببصري)؛ فعندما أغمضُ إحْدَى عيني تتقلصُ شاشَة الخارج بشكل يصير معه أنفي جَسدا أعوج يُعَكِّرُ عليَّ صفاء الرُّؤية، ولذلكَ أحتمي بعيني الأخريينِ الكائنتين خلفَ رأسِي. إلا أنَّ ذلك يحوِّلُ جمجُمَتِي الصغيرة إلى نقطة يتجَاذبها فضاءان مُتراكبان، فإلى أيهما يجبُ أن أركن؟

والثاني: كوني دينصُورٌ.

نعم، أنا دَينصور! ففي رأسِي يثوي دماغ وزنهُ عشر كيلوغرامات ونصف، وعما قريبٍ سيتضاعف مئات المرَّات، وسَأحتاج في حملِه إلى شاحنة ترافقني أينما حَلَلْتُ وارتحلْتُ. فهل تُقَدِّرُونَ الآن مِقدار ما يستنزفه مني الفكرُ؟

بلْ أين أنا الآن؟ ومن صيَّرني على ما أنا عليه؟

*

* *

يغمرني يقين تامٌّ بأنَّ السُّؤال كانَ مبدأ ما أنا عَليه الآن. ذلك أنني لم أفطن ذاتَ يوم، وأنا في غمرة السَّهر عَلى أضْواء الشمُوع

الحزينة، وطنين يرن برأسي، كان من القوَّة بحيث كادَ يفقدني حاسة السَّمع: فقد ألحق بإحدَى أذني ضرَرا هو الأصل في عَدم استجابتي إلى اليوم لما يُحيط بي من أصوَات بكيفية تجعل الكثيرين يتوهمُون أنني أحتقرُهم أو لا أهتم بما يقولون. كلا ما احتقرتُ أحدا، ولن أحتقره. وفور انتهاء الطنين شعرتُ براحة كبرى كَأنني شفيتُ من مرض عُضال. أحسستُ بنفسي خفيفا جدا جرَّاء مَا ملأ جسَدي وعقلي من خَوَاء. فهمتُ الرِّسالة كما يفهمُ الأنبياء مقصدَ الحالاتِ الغريبة التي تدشن وَحيَهُم. كان الرَّنين القوي ومَا رافقه من صُداع وصُعُودٍ في الرَّأس، ودُوَار، وحمى، ورَغبة في القيء، وإحسَاس بالإرهَاق المفرط...، كان ذلكَ كله رُمُوزاً لحياتي الماضية «السَّوية اجتماعيا والمتكيفة مَع الآخرين»، وكان الخوَاءُ، والرَّاحَة، والارتخاء، والهدُوء رُموزا لحياتي الآتية التي أوجَدُ عَليها الآن. عندها قلتُ: «من أنا؟ ومَاذا أفعل هنا؟». والآن من أنا؟ وماذا أفعل هنا؟

وبعين المولود أو الغريب عن هذا العالم أخذتُ أتأملُ أعضاءَ ما تدعُونه جسَدا عُضوا عُضوا، ثمَّ انتقلت عيناي إلى هذا السَّرير، والمائدَة، والكتبِ، والكؤوس... فكَان ما من شيء يقع عليه بصَري إلا ويَصُدُّنِي بعلامَة استفهام تكونُ في البداية صغيرة بحجم بَعوضةٍ أو نملة، إلا أنها بمدى استغراقِي في التّركيز تكبرُ إلى أن تصير بحجم فيل أو دَلفين...

لم أفلح إلى الآن في مَعرفة مَصدر تلكَ الأسْئلة ولا من نصَبَها لي فخّا،لم أفطن بوقوعِي فيه إلا بعد أن فاتَ الأوان: أأنا الذي كنتُ أتسَاءل عن ماهية تلك الأشياء، لكوني أُفرِغتُ من قِبَل من لم أعرفه

بَعدُ، أم أنَّ تلكَ الأشياء نفسها هي التي كانت تطرح نفسَها عليَّ باعتبارها أسئلة مُتحدية صَادرة من كائنات وجمادات أسيرة عُقَال العَقل؟ كأني بها كانت تقولُ بلهجةٍ ساخرةٍ مِلحاحةٍ:

«من أنتَ؟

عرفني أوَّلاً بمن تكون».

استحوذ عليَّ الرعبُ. أغمضتُ عينيَّ. وجدتُنِي سؤالا يكبر بمجرَّد إحسَاسي بأنني مَوجُود. حاولتُ الوقوف. لم أقوَ على الوُقوف، لا لعجز وإنما فقط لكون كثرة الأعْضاء اختلطت عليَّ فلم أعُد أعرفُ أعَلَى رِجْلَيَّ ينبغي أن أقف أم على يدَيَّ. لم أعرِف، لكي أتحرَّك، أعلى يَدَيَّ ورجليَّ يجب أن أمشي أم على بطني أو ظهري يتعيَّنُ أن أزحَفَ؟... حاولتُ جميع الإمكانيات لكنها كلها آلت إلى الفشَل. لحظتها تصدَّعَ عقلي وَتصَعَّدَ، فلازمتُ وضعا كل ما أتذكره عنه هو أنه شيَّأَنِي إلى أن صرتُ كيس إسمنتٍ أو حجر. أطلقتُ صرخة عظمى، ثم لفَّني صمتٌ رهيبٌ، وفجأة أخذتْ مَوَاكبُ الأصوَات تتدحرجُ إلى سمعِي بالكيفية ذاتها التي كانت بها أسئلة الأشياء تكبُر. كان الصَّوتُ يبدأ خافتا، وبمدى إنصَاتي إليه يكبرُ... أستيقظُ. أجد أفراد عائلتي قد احتشدوا دَاخل الغرفة. شفاههم وأيديهم تتحرك، وعُيونهم مُركزة عليَّ، غير أنّني لا أسمع إلا أصوَات الحيوانات والطيُور، ولذلك لا أفهمُ ما يقولونَ، أصرخ وأتخبط، يحاولونَ الإطاحة بي عبر إمساكي والتّحكم فيَّ، لكن دونَ جدوى... لم أفهَم بعد أي مَاردٍ كنته لحظتئذ. فقد كان يكفي أن أحرك جسدي بقوة أو ألوّح بيدي فيسقط الحشد المحيط بي. ولذلك اندفعتُ خارج البيت، وقضيتُ الليلة فوق أول شجرة اعترضت سبيلي.

في الصَّباح الباكر تربصتُ بالمارة إلى أن امتلأ بهم الشارع، فصرختُ فيهِم باكيا: «أين أنا؟

من أنَا؟

ماذا أفعل هُنا؟»

أحاط بي حشدٌ من أهل الفضُول، لكنهُم كانوا مِن الغبَاوة بحيث لم يفهَموا ولو حرفا واحِدا مما كنتُ أنقله إليهم من وحي علومي ومعارفي...

آنذاك، انطوى عقلي، وانفتح خاطري، وخُتِمَ على ذَاكِرَتِي بالنسيان، فصرتُ أعلم الغيبَ، فأعرف حَال الغائِب ومقامه، وينتهي إلي صوته وهُو يبعد عني بآلاف الكيلومترات، وأتمنى الشَّيء فيتحقق في رمشة عين. ثمَّ انغلقت أذناي وشُلَّ لساني، فصرتُ أفهم كلام الطيُور والضفادع، وأعرفُ ما يجول بخاطر الجنين في بطن أمِّه، ومَا يراه المولودُ فور خرُوجه منَ رحم أمه، ومَعنى صراخه الذي لفرطِ جهلكم بمحتواه لا تجدُون ما تفعلونه أمامهُ سِوَى الضَّجَر والقلق بامتعاض. كما صرتُ أرَى ما يراه الميتُ لحظة احتِضاره، وأفهم معنى الدُّمُوع التي ترشح بها عيناه قبيلَ أن يسلم رُوحه... ثم غرقتُ في طوفان الفِكر، فصرتُ لا أرى حيثما ولَّيتُ وجهي إلا إقليما مِن فكري أو بُقعةً من جسَدي إلى أن قلتُ: «سُبحاني ثم سُبحاني، فما أنا إلا أنا!». لكن أيّ تعاسة ساقها إليَّ ذلك الحال؟ فقد عصفت بي صاعقة من الفزع المرعِب لما أشرقَتْ عليَّ شموسُ المعارف، فعلمتُ أنني سبقتُ بني البشر قاطبة إلى ما لا يعدو تاريخهم برُمَّتِه مجرَّدَ بحث عن الوُصول إليه. نعم إنَّ الناس في ممشاهم وقعودهِم ومَحيَاهُم ومماتهم لا يفعلون سوى

البَحث عن إحراز ما يحيط بي الآن من إشراق نورانِيّ، ولذلكَ اضطررتُ إلى الاحتجاب، خاصَّة أن نظرات الآخرينَ إليَّ من حولي بَدَأتْ تحرِّكُ بداخلي أمواجَ القلق المرعب، حيث كنتُ أقضي اليومَ وأنا أتجوَّل بمنتهى الهدُوء والاتزان، لكن عندَما أعُود إلى المنزل أفطنُ إلى أن خمسة أشخاص، على الأقل، قد ركَّزوا أبصارهم عليَّ وتتبعوا خطواتي مُتَجَسِّسِيَن عليَّ، ولذلكَ كنتُ أقعدُ في المنزل مُتسائلا:

«لماذا يفعلون ذلك؟

من هُم؟

مَاذا يريدون؟

أي شيء فعلتُه فاقتضى نصبَ فخاخ عيونهُم عليَّ من بين المارة قاطبة؟

أيُّ علامة عالقة بجسدي - دون أن أعرفها - دلَّتهُم عليَّ؟

من ألصقها بي؟

لماذا؟».

لقَد خصَّصْتُ لهم ليلة كاملة استحضرتهم فيها جميعا، فاستذكرتُ نظراتهم الغريبة المسْتهزئة نظرة نظرة، وابتسَاماتهم المريضة ابتسَامة ابتسَامة، واستنطقتهُم، فوجَّهتُ إليهم أسئلة عَديدة لكنهم رفضُوا جميعا الإجَابة عنها. ولما فاق عدَدَهُم الألف صُعِقتُ، فصرخت في وجوههم، لكن لا مَن يجيب، واستنجَدتُ دون أن يهبَّ لنجدني أحدٌ. لم يستجب لطلبي حتى من ظننتُ إلى ذلكَ الحين أنهم كانوا أشدّ الناس قربا إلي وحنانا عليَّ. وبذلكَ صار أكثر ما يثير فيَّ الرُّعبَ اجتيازي عتبة المنزل، لأنه يَسْهُلُ ألف مرَّة على أيِّ شخص أن يقتلني داخل

البيتِ وقد لا يسهُل عليه مرَّة واحدة أن يلحق بي أقل أذى عندَما أكون أتجوَّل في الشارع خشية أن يضبطه الآخرونَ، فيعرض نفسه بذلك للمُحَاكمَة والسِّجن.

آنذاكَ صرتُ أشكُّ في كلّ من يحيطونَ بي، بما فيهِم أفراد أسرتي، ولا أثق بتاتا في هيئاتهم ومَلابسهم. فحينما أتحلق معهم حَول مائدة الطعام أشكُّ في أن يكونَ أحد الرَّاغبين في قتلي قد تنكرَ في هيأة أبي أو أمِّي. ولذلك، لكي أطمئن إلى أنني جالس أمَام أبي وليسَ بجانب شخص آخر، كنتُ ألقِي على المدعو «وَالِدِي» سيلا من الأسئلة، فأقولُ له: «من أنتَ؟ ما اسمك؟ متى تزوجتَ المرأة التي تزعم أنها "أمِّي"؟ من أنا؟ أي صلةٍ تربط بينك وبيني؟ ماذا كان غذاؤنا ليلة البارحة؟...». كما كنتُ أعمدُ إلى اقتفاء أثره وهُو قاصدٌ المنزل فما يكاد يجتازُ العتبة حتى أباغته سائلا: «كم غرفة توجدُ بهذا المنزل؟ ماذا يوجدُ في الغرفة الفلانية؟...»، حتّى إذا انتهيتُ من استنطاق أبي انتقلتُ إلى أمِّي وطرحتُ عليها أسئلة عديدة حول علاقتها بالمدعو «أبي» وبي أنا نفسي، وبما يُقال إنهُم «إخواني»...، وأنَا موقن بأنني لا محالة ضابط أحدا ما يتربَّصُ بي الدوائر. لكن بما أن أجوبتهم كانت تهوى دائما عليَّ كالصخر فقد انتهَى بي الأمر إلى اليأس من إمكانية ضبطهم، ولذلكَ انتقل بي الشَّكُّ إلى الأشياء التي كانت تؤثث المنزلَ فصرتُ أقفُ أمام السَّرير ساعات طويلة وأنا أتوسل إليه وأستعطفهُ قائلا:

«يا سيدي السرير. أنت تعرف أنه مهما تكن حقيقتكَ فإني ابنٌ لهذا البيت وأنَّ وجودي به أقدم منك بكثير. فإن كنتَ السرير

الذي أعرفه فعلا فالأمر على ما يُرَامُ، أما إذا كنتَ رجلا أو امَرأة متنكرين بهيأة فراش فاكشِفا عن وجهيكما قبل أن أقتلكما...».

وعندَما لا يتكلم السرير أحملُ عصا، وآخذ في ضربه إلى أن يفطن أحد أفراد أسرتي، فيأتي ويصرفني عن ذلك...

*

*　　*

لما تكاثر عددُ الأعداء من حولي بشكل أيقنتُ معهُ استحالة ضبطهم جميعا عدلتُ عن فكرة التصدِّي لهم بمواجهتهم وقرَّرتُ أن آخذهم باليسر، فصرتُ أتلَطَّفُ لكل من تربطني به صِلة مَّا وكلُّ من خامرني أدنى شكّ في كونه ينوي الإسَاءة إلي، فأخذتُ أعمدُ إلى مباغتته بالسَّلام، وتقبيل يَديه، وإكثار الإنصات إليه، وإبدَاء كامل الرِّضى عما يقولُ، والتظاهر بمشاطرته رأيه فلا أُعَقِّبُ على كلامِه إلا بعبارات:

«نعم سيِّدي!»،

«الأمرُ كما قلتَ يا سيدي!»،

«سمعا وطاعة يا مولاي!»،

«تماما يا سيِّدي!»،

«حاضر يا مولاي!»...

أقول ذلك حتَّى وإن كانت كلماته وأفكَاره في الحقيقة ترَوِّعُني لشدة سذاجتها وغبائها، وذلكَ كله من أجل شَيء واحدٍ: إخفاء هالة النّور المحيطة بعقلي وطوفان الفكر الذي يجرفِني، والتظاهر بأنني دون

الآخَرين وأنَّنِي لن أفاجئكم في يوم من الأيام بكشوفاتي التي أنا عازمٌ، في الحقيقة، على أن أقلب بها ليس مسَار الكرَة الأرضية فحسب، بل وكذلكَ مَوقع النظام الشمسيّ بكامِله وطَريقة عمله...

وقد عمدتُ إلى الحيلة نفسِها مع الأشياء أيضا، فكنتُ لا أنام إلا بَعد اجتياز طقس مُطوَّل في استعطَاف الخزانة الخشبية، والسَّرير والغِطَاء، والجدرَان، والأوانِي، وكلّ أشياء المنزل، فكنتُ أبتهلُ إلى الخزانة مثلا وأنا أقولُ:

«يا سيدتي الخزانة، ناشدتُكِ الله، لا تقتليني وأنا نائم. وكما تعلمين، فقد نزل عَلي وحيٌ، لكنني أطمئنكِ الاطمئنان كله بأنني لن أبلغه إلى جماد أوبشر. أعدك بأنني سأتحوَّلُ إلى هرٍّ أو كلبٍ أو جمادٍ مثلك، وأنني سأنقلك إلى قصر فاخر حالما أُنصَّبُ مَلِكا أو أميرا. وفي انتظار ذلك، لا تقتليني أوتسقطي عليَّ وأنا نائم»...

وقد كتبتُ في تلك الأيام رسائلَ مجهولة عديدة، وجَّهتها إلى كلِّ من شككتُ في احتمال إساءته إليَّ، كنتُ لا أنهي الواحدة منها إلا بعد أن تكاد رُوحي أن تزهق، لأنني بقدر ما كنتُ أحرصُ على توجيه تلكَ الصُّحُف إلى أولئك الأشخاص كنتُ أخشَى أن تكونَ تلك الرَّسائل نفسها هي الدَّليل الذي سيرشد مُتلقيها إلى مَكان اختفائي؛ وأنا أكتبُ، كنتُ لا أكفُّ عن ترديد: «وما أدراكَ أيها الغبي أنَّ أحدا لم يتعرَّف عليك بعد، وأنكَ برَسائلك هذه ستجلبُ الأنظار إليك؟». ولتحاشي ذلكَ، كنتُ أعمدُ إلى إخفاء بصماتِ يدي بحشو كفيَّ داخل قفازين قبل الشروع في تحرير كل وَرقة وعدم نزعهما إلا بعدَ وضع الرِّسَالة في إحدَى العُلب البريديَّة، كما كنتُ أحرصُ بشدة على استبدَال مُعجمِي

وأسلوبي، فكنتُ تارة أتقمصُ لغة فقيه وتارة لغة سِكير، تارة لغة زاهدٍ وتارة لغة زندِيق... ولا أخبُر المرسَل إليه بهويتي الحقيقية إلا في نهاية الرِّسَالة حيث كنتُ أعمدُ إلى تذييلها بهذه الكلمةِ:

«واعذرني يا سيدي إن كنتُ قد شوَّشتُ عليكَ بهذه السَّحابة الكثيفة التي لففتُ بها وجهي وفكري. فما أجبرني على ارتدائها إلا الخوف منك ومن أمثالك. وإن لم تعذرني فاعلم أنني قد سبقتك إلى عدم الصفح عنك. كُنْ صادقا مع نفسك، وأجبني عن هذا السّؤال: أتُراك كنتَ ستمُرّ علي مرور الكرام لو كنتُ كاشفتُك بحقيقة شخصي؟».

وفور الانتهاء من كتابة الرِّسالة كنتُ أعمدُ إلى قرَاءتها أربعين مرَّة، لكن بعين الشَّخص الذي سيتلقاها بغية الوُقوف علَى الأثرِ الذي ستخلفه فيه وإعادة تحريرِ بعض مُفرَدات الرسَالة أو تراكيبها إذا ما وجدتُ ما يقتضي ذلك، كأن يهتدي المتلقي إليَّ أو تثور حفيظته ضدِّي. وللوصول إلى ذلك كنتُ أتقمَّصُ شخصية المرسَل إليه، فكنتُ أغادرُ المنزل ثم أفترضُ أنني عدتُ إليه، فأفتحُ علبة الرَّسائل، حيث أكون وَضَعتُ الرِّسالة قبل خرُوجي، ثم أقولُ: «لننظرْ! ما هذا؟ رسالة!. أرسَلَهَا ي. ي. م. أ.!، من يَكون ي. ي. م. أ. هذا؟! ولماذا حرصَ على عدم كتابة اسمه على الغِلاف؟ لكن لننظرْ...». ثم أدخلُ إلى المنزل، وآخذ في قرَاءة الرِّسالة إلى أن أنهيها، فإن وَجدتُ فيها ما من شأنه أن يَدُلَّ عليَّ أخفيته وأعدتُ تقنيعه، وإن شعرتُ بقلق شديدٍ أو برغبةٍ في قتل الكاتب مزَّقتهَا وأعدتُ كتابتها من جَديد، وهكذا... ولا أخفيكَ، يا يعقوب، أن مجرَّد الرضا عن النصِّ الواحِد كان يستنزفُ منكَ عشرة

أيام فمَا فوق، فما أدراكَ بوضعها في البريدِ، أي الحسم في أمر إرسَالها إلى صاحبها؟ فقد كنتُ أترقبُ نزول الليل، فأدسُّ الظرف في جيبي، ثمَّ أقفُ بعتبة المنزل تحسُّبا من أن يرَاني شخصٌ ما، فإن وجدتُ فردا مَّا عُدتُ إلى الدَّاخل، وإن لم أجد أحدا نظرتُ يمينا وشمالا، ثم أطلقتُ سَاقيَّ للرِّيح، ولا أقفُ إلا أمامَ أحد صُندُوق بريديّ...

ومع تقليلي الخروجَ من المنزل، فإنَّني لم أفطن ذاتَ يوم إلا وأنا محاصَرٌ بالسُّؤال الآتي:

«أيكفي أن يَكون المرء أباكَ أو أمكَ كي لا يقتلك؟

من ضِمن لكَ أن والدَك لن يغتالك؟»

وما هَوَتْ عليَّ هذه الفكرة، وأنا حَول مائدة الطعَام، حتى نهضتُ مُسرعا، وألقيتُ على الجمع نظرة أسَفٍ مُتحسِّرة، ثمَّ قلتُ لهم:

«وداعا! إلى اللقاء!»

وأطلقتُ ساقيَّ للريح، حيث قضيتُ لستُ أدري كم من أزمنة في التسَكع إلى أن أعادني جمعٌ آخر إلى البيت وسَلمني لأقاربي كمَا تعَاد البهيمة الضائعة إلى أهلها.

*

*   *

حضرة الأب اللا محترم

لا تحية ولا سلام ولا هم يحزنون

وقبل،

فإني أنا، وأنا لستُ أنا،
أتظن أنني سأكون من الغباوة بحيث أنسى ما ألحقتَه بي، منذ صباي إلى اليوم، من أضرار بليغة مزمنة من فرط قساوتها ما انفكَّتْ طبقاتُ نفسي الأشد صلابة تتهاوى الواحدة تلو الأخرى، وتضعني على حافة الجنون؟ أتظن أنني سأكون من الغباوة والسذاجة بحيث أصدق الهالة التي كنتَ دائما - ومازلتَ - تحيط بها نفسك وأنبطح لك كما انبطح لك الآخرون؟.. كلا، إنني ما فعلتُ ذلك يوما ولن أفعله طالما حييتُ. فقد غسلتُ يديَّ كما يغسل المرء بدنه من النجاسة والأوحال، وسأريك كيف تأتى لي ذلك:
اعلم أنني الواحد الأحد، لا والد ولا ولد، لم يلدني أحدٌ، لا ولن ألد أحَدا، لأني نسجتُ لنفسي مِنيِّ سُلالات وأشجار نسابات رحَّالة لستَ فيها وما تزعمون أنها «أمي» سوى أشباح تافهة حقيرة تعكر صفو هذه الرحلة التي أعياني البحث عن مبدئها ومنتهاها - إن كانت سنتهي فعلا -، ولا من أمرني بها، ولا ما إن كنتُ قد ارتكبتُ ما استوجب قيامي بها، ولا ما إذا كانت جزاء أم عقابا... فاسمع جيدا: أنت حفيدي الثالث من زوجتي الأولى، بمعنى أنك لن تولد إلا بعد أن تكون عظامي قد رشيتْ في القبر، وأمي هي ابنتي البكر من زوجتي الثانية. حبلتْ بها مني منذ كنا طفلين نلعب تحت شجرتي التين والزيتون الكائنتين في ضلعي الأيمن. وجَدِّي هو أخي الأكبر، وأمُّ أمي هي أختُك الصُّغرى... و على كل، فبقية شجرة السلالة آتية ولا داعي كي أذكرها لك لأنك

تعرفها حق المعرفة، خاصة وأن لي الآن مشاغل على درجة قصوى من الأهمية، أقلها السّهَر على حفظ توازن العالم من غرفة قيادته التي أقبع فيها منذ سنين.

حضرة الأب اللامحترم:

لاقبل ولا بعد،

فإني أنا،

أتظن أنني صدَّقتُ زعمكَ بأنك كنتَ عالما كبيرا!، أنكَ كنتَ تلتهم أسبوعيا ركاما من الكتب وتتماهى مع كل ما تقرِأه إلى أن يلتبس عليك الأمرُ فما تعودُ تعرفُ هل المصنفُ قسمة مفقودة منك أم أنك قسمة ضائعة من الكتاب؟!... كلا. لم تكُن عالِماً، كنتَ عالَما لاغير. وهيهاتَ، ثم هيهاتَ أن تنطلي عليَّ خدعتك، بحيث أصدق أن تنقلب الفتحة إلى كسرة بمثل هذه السّهولة. اعلم أنَّ دوام بقاء المسافة بينهما هو ما يمنح للعلم معنى وجوده. متى اتحدتا صار العالم وجها آخر للعلم، وهذا استحال بلوغه على النوع البشري بكامله، فأحرى أنتَ الذي لا تساوي حتى نصف بعوضة!.. إني لم أتظاهر بتصديقك إلا خشية أن تُدبِّر مؤامرة ضدي. نعم، إنك تدبر مؤامرة ضدي، وإلا، فلماذا سألتني: «أينا الآخر؟ أأنت أنا أم أنا أنت؟»، «في أي فقرةٍ نحن من الكتاب؟»، وأنت تعرف حق المعرفة أنَّك ابني، أني خالقكَ، وأنك في الفقرة الحالية من الكتاب تقيم؟ وإلا، فلماذا لم أجد أعضاءك مرفوقة بالكتب التي أودَعتَها في الأكشاك زاعما أنها من تأليفك؟

لماذا لم تأمر أي صحيفة من صحف العالم - على كثرتها الرهيبة - بتصدير صفحتها الأولى بالإعلان عن خبر مرضي، علما بأنني أعظم وأنبل وأذكى رجل عرفته البشرية على الإطلاق؟ ثم لماذا أمرتَ الجارة بتشغيل جهاز الموسيقى وتركِ باب منزلها نصف مشرعٍ إلى أن توهمتُ أنني أمام صبح سعيد، فكان ما كان مما لا داعي لإعادة سرده عليكما ما دمتما تعرفانه حقَّ المعرفة؟

الآن وقد انكشفت لعبتكما الخسيسة، أخبركما أنني لم أعد أومن بمخطوط ولا بكتاب، لا عالِم ولا عالَم، لا كتابة ولا مكتوب، لا عِلم ولا عَلَم، لا طبيب ولا فقيه. لكن، هل فهمتما لماذا انفجرتُ ضحكا عندما كنتُ متحلقا حول مائدة الطعام؟ لقد أخبرتُ أحدكما بهِ في مراسلة سابقة. فليبلغ السابق منكما اللاحق بما نقلتُ إليه من وحي.

في انتظار جوابكما، لاتحية ولا هم يحزنون ولكما مني جزيل الشكر على حسن انتباهكما والسلام.

تنبيه:

لا تنسيا أنِّي أنَا، وأنا لستُ أنا.

التوقيع:

رأسُ العالِم

ي. ي. م. أ.

*

*　　*

من يعتقد أن قبُوعي في هذا المكان منذُ ما يزيد على عَشر سنوات يعود إلى عجزي عَن الاندماج في العالم الخارجي والتواصل مَع الآخرين أو إلى أنني أوتيتُ وحيا تعذَّرَ عليَّ تبليغه، فهو خائنٌ، وأبُوهُ عاهرٌ. فقد أدركتُ من أنتم، وماذا تريدُون، وإلى أين أنتمْ ذاهبُون حتى صَار استمرَار إقامتي بينكم أمرا مُستحيلا لأنني مهمَا أفعل أو أقل لا أجدُني إلا محاصرا بمرآة خفية لا يراها أحد سِواي، مرآة تُذَكِّرُني بأنني لا أعدُو مجرد ممثل في مسرَحية لم أكتبها، ولم يُؤخذ برأيي فيمَا إن كنتُ أقبل اللعب فيهَا أو أرفضه، فهل تقبلون أنتم بمثل هَذا الوضع؟ هه؟! تكلموا!

أنا قابعٌ هنا داخل هذه الوحدَة لأنني على مَوعد مع وحي آتٍ لا ريب فيه، وحيٌ بدأت معالمه الأولى في الاتضاح، هُو كلمة واحدة أو شِبه معادلة رياضية يكفِي أن أنجزها فينتهي كلُّ شَيء. ستصيرونَ «كَانُوا». فاجمعوا حَقائبكم وأعدُّوا عُدَّةَ الفناء. كلمَة واحدة ويزمجر مَوجُ فكري الطوفاني وتزَلزَلُ الجبال الشاهقة المقيمة بدَاخلي، التي تشدني إلى مائدَة الكتابة شدّا مانعة إيانا من السُّقوط على السَّماء...

إياكم ومغبَّة الإستهزاء بي. فلي أحَاسيس مَغناطيسيَّة تأتيني بكُل مَا يجول في خوَاطركم، وكلّ ما تتنابحون وتتهارشُون به في شَأني. وقد صنفتُ في ذلك مجلداتٍ ضخمة هَا هي تحيط بي وتشهدُني صَباح مساء على ما أنتم إياه. منزلِي الآن صار مُلحقة لقسم الشرطة، ملحقة لجهَاز المخابرات المركزية. لكلِّكم عندِي ملفٌّ باسمه، وعنوانه، ولونه،

ووَزنه، وطَعمِه، وَقامتِه، ومُعجمِه، وأمَاكِن تردُّده، ومَا يقوله في شأني... وعندما أقولُ «إياكم»، فإني لا أقولها خوفا مِنكم وإنما خوفا عليكم، لأنني لم أفرغ من الكتابة بعد. ولي من المداد والوَرَق ما لن تفرغه هَذه المصنفات وإن كانت ترَاكمت بحيث صرتُ من جرَّاء رؤيتها مصابا برُهَابِ الموتِ كتابة وأنا لم أولد بَعد. نَعم، إني أنا، وأنا لستُ أنا، لأني لم أولد بَعد، وهذه الجثة التي ترونها وتزعمُونَ أني إياها أو أنها إياه لم تخلق لكم. فهي محض أمانة مَودعة هنا إلى حين فنائكم ومجيء كائناتٍ أخرى كُلفتُ بالكشف لها عن عَورَاتكم وإرشادِها إلى الوجهة الصَّحيحة التي ينبغي أن يُساقَ نحوَها العالمُ... وبكلمة واحدةٍ، لولا الشفقة عليكم لخرجتُ الآن توّا. وما أدراكم ما خروجي! فقد طهَّرتُ النّوعِ بدَاخلي، وجعلتُهُ من النقاء والصَّفاء والقداسَة بحيث صرتُ يكفي أن أقوم بجولة في الشَّارع فأغرقكم في رُعب ما سترونَه من الجثث المتناثرة، والعَاهات التي ستتسَلط عليكم جميعا، فَلا يفطن المرءُ منكم إلا وبعقلهِ عَمىً، أو قرَعٌ، أو عرَجٌ، أو جرَبٌ أو سَيِّدَةٌ... كيف سيتأتى لي ذلك؟! لستم في مُستوى معرفته ولا أنا من الضّعف أو الشكِّ في نفسي بحيث أحتاج إلى تبرير ما أقوله أو تقديم الحجج عَلى صَوَابه. فقد صرتُ الحجَّةَ والحِجَاجَ نفسهما.

بيني وبينَ الحياة طلاقٌ أبديٌّ، وما وجودي هُنا إلا خطأً في إنجاز معادلة حسابية لستُ أدري من ينجزها ولا مُنذ متى ولا لماذا. لكن مَا فائدة مَعرفة كل هذا، إن كنتُ سأصل إليه حقا في يوم مَّا، مادامت كتلةُ اللحم والعظم هذه التي تدعَى هيأة أو جثة ملكية خالصةً لي أتصرَّفُ بهَا وفيها وفق مشيئتي؟ عفوا! بل هَل أتصرَّف فعلا بنفسي وفي

نفسِي بمحض إرادتي أم أنَّ شخصا ما هو الذي أنزلني إلى هَذه الأعماق الهادئة المرعبة؟ من فصَّلَ العقول طوابق شاهقة متراتبة مُتراكبَة وأسكَن الأسوياء الذين يعتبرون أنفسهم ملائكةً بجوار الرِّياح المتهادِيَة وأنزلني في قعر هَذه البئر العميقة الموحشة؟...

- كفَى أسئلة يا أحمد!

- بل أأحمد أنت أم محمد؟

- هاكَ بطاقة الهوية لتتحقق ممَّن نحن...

- فسدت اللعبة! دعنا من التُّرَّهَاتِ، ولننصت إلى هذه الكلمة التي حطّت مُنذ مدَّة في مُدرَّجٍ من عقلنا، وأعياها طول الوقوف في قاعة الانتظار:

«الجبين خيال يتصبَّبُ، والقلم مثبت في الأفلاك، والرأسُ حلبة لاقتتال الكلام، وها هي الكلمات الجريحة، تكتب المصيبة. أفي الخارج أنت الآن أم في الداخل؟ كلاهما فراغ ينهار عليك. كتلة لحم ودم وظلام، تكسو عظاما مهشمة، تؤثث كلمة جريحة، رنحها الألم. وأنا أمشي، أستدعي طيفها اللاينال، وأستجلي نفسي، فإذا بها طيف لاينال، أنت هي، وهي أنت، فسبحاننا، ثم سبحاننا!...»

- مَن هي؟

- الله أعلم!

- ما هذا الهذيان؟!

- أتعتقدونَ أن وحدتي وهذياني قد أنْسَيَانِي فيكم؟ إنِّي لأستحضركم في كلِّ سَاعة: عندما أستيقظ في الصباح، وعندما أجلس

للأكل. عندمَا أدخلُ إلى المرحَاض، وعندما أجلسُ للكتابة. عندمَا أتمطى في الفِراش كي أنام، وعندَما أحملُ القلم لتدوين هَذا الوَحي... لكن في أية صُورة أستحضركم؟ لقد احتفظتُ لكل واحدٍ منكم بوجهه. من شَاءَ استلامه فليُعجِّل بزيارتي.

إنني بداخل كلِّ واحدٍ منكم مُقيم. نشرتُ بينكم عيونا وآذانا مني تأتيني بخبر الضَّرطَةِ والفَسْوَةِ تُصدُرُ منكم «في حقي» ولا تفطنون إليهما. ولذا، فأنا أعلم عِلم اليقين ما يجول في خَواطركم بشأني. وحِين يجتمع لديَّ ركام الأخبار أتفحَّص أقوالكم كلمَة كلمَة حتى إذا انتهيتُ قلتُ: «مَا أحوَجكم إلى الشَّفقة أيهَا الملائكة العُقَلاء!»، ثمَّ حملتُ مكنسة ورحتُ أرتِّبُ عقلي: أكنسُكم منه، أسحَب أجسَادكم من الأرجُل جسَدا جسَدا إلى أن تتكوَّم الجثث ثم ألقِي بالجمع في هَاوية النسيان، وأقعُدُ بداخلي أتفيأُ ظلالَ الانتشاء الخاوي الفرحَان...

وقبلُ،

فإني أنا، وأنا لستُ أنا

خائنٌ هو، وأبوه عاهرٌ، من يعتقد أني مريضٌ، لأنكم بما أنا عليه الآن معنيونَ مرتين: فعندما أقع تحت طائلة رُعب الوحدة، ويفلتُ مني مِقوَدُ تصرفاتي، ويفقدُ العالم توازنه بداخِلي، فتلفني غيُوم القلق، ألعنكم، وأخطط لاغتيالِكم واحدا واحدا، ثمَّ أخرجُ إلى الشارع شاهرا مُدية حادة، وما من أحد صادفتُه إلا وفقأتُ عينيه، أو قطَّعتُ أذنيه، أو بقرتُ بطنه وأخرجتُ كيس بُرَازِه. فتفحَّصُوا أطراف أجسَادكم مليا، وافتحوا خياشيمكم جيِّدا ترونَ لأجسامكم روائح نتنة، تزكمُ الأنوف وتبعَث على القيء، لا يفطنُ إليها إلا من أدمَنَ

السياقة ومعاشَرة القطط، روائح لا يمحُوها عطرٌ ولا صابون لأنها من حُرُوق لغتكم تفوحُ....

*

*   *

من يعتقد أنني أكتبُ ما أكتبه الآن لأنالَ عطفا ما، أو أنقل رسالةً ما فهو إلى الشفقة أحوج. ومَن ظنَّ أنَّ هذا الكلام أدَبٌ فهو مخطئ، لأنه فيما يعتقد أنني كاتبُ هذه الصفحاتِ يغيبُ عنه أن الكتابة هي التي تكتبني، وأنَّ معنى أن يكون الإنسانُ أديبا هُو أن يَجعَلَ - أو يُجعَلَ - على فمه كمامة، ثم يقال له: «عَقَدْنَا لِسَانَكَ. أنتَ الآنَ شِبهُ ضَرير فَتَكَلَّمْ»، فيَتكلم بكلام، يسَمَّى روَاية أو قصة أو شِعرا....، تقاسُ جودته بنوع الكمامة التي وضعها أو وُضِعَت له. أما أنا فما وضعتُ على فمي كمامة ولا مِخلاة، ولا حمَّلتُ أصابعي بأقلام، ولا آويتُ في صفحاتي نصُوصا ولا لصُوصا. أنا إنسان يتألم ويتكلم. مقامِي بَينكم لا يعدُو مجرَّد محطة في حياتي الكبرَى التي بدأت قبل أن أولد وسَتتواصلُ بعد أن أمحَى. أرسَلني إليكم مَن لم أعرفهُ بَعد كي أبلِّغكم رسَالة خلاصِكم مِن دَاء الوجُود والعقل. كائنٌ ليليٌّ أنا، لحمي ودمِي وعظمي، كلٌّ قِيسَ بالظّلام وخيطَ بالموتِ... أيها الناس! أنا الآن ميتٌ، حيثما تحرَّكت وجدت نفسي ماكثا في مكاني والطرقاتُ تَمشِينِي، والأقلام تَكتبُني، والطعَام يَأكلني، والموسِيقى تَسمَعُنِي، والوقتُ يُضيِّعُني... ومَهما فتحتُ عيني لم أرَ إلا غبارا وسَوادا. فيا صاحبَ النور،

لماذا بخلتَ علينا بمصباح أو شمعة حتى نرى بعضنا بعضا ولو للحظة واحدة في غَمرة هَذه الظلمة الحالكة؟ وأنتِ يا رَحَّالُ! افرِغِي هذه القمامة منّا وأريحينا جميعا!».

إن القلم الذي يدبُّ الآن بين أصَابعي الآن ليس سِوى بديلٍ عن قدم الدينصُور الذي كنتُ سَأكون إياه، لو لم تتواطأوا ضدِّي بسرقة عقلي، بتمريضي، كي أزلزلَ الأرضَ تحتَ أقدامِكم وأنثرَ في مسَالككم حُفرا بحجم الشروخ والخرُوم التي حَفرَتهَا حُرُوق لغتكم ومَعاولها بيني وبينكم إلى أن تتناثرَ فيهَا أجسادُكم تناثر الذرَّات فلا يفطنُ المرء منكم إلا وهو قاعدٌ في قعر هذه البئر - حيث أقبع مُنذ متى؟ الله أعلم - وعقله معطّلٌ وهو يتسَاءل: «من أنا؟ ماذا أفعلُ هنا؟ من أسقَطني هنا؟». والآنَ من أنا؟ ماذا أفعل هُنا؟ من أسقطني هُنا؟ ومنذ متى؟...

إني لأحذرُكم الحذرَ كلَّه من أن تقرَأوا الوَحي الحالي جَالسين على كرسِيّ أو مستلقين على سرير أو أريكة. مَن يفعل ذلك فقرَاءته بَاطلة. فليُسارع إلى التكفير عن زلَّتِه قبل أن أنزل به عُقوبة العَدوى فلا يفطن لنفسِه إلا وهُو يسير في الطرقات عاريا حَافيا، يتكلمُ ولا يسمعه أحدٌ، ويقول «أنا الوَاحد الأحد، لا والد ولا وَلد، لم يلدني أحدٌ، لا ولن ألد أحدا»، ويتراءى للقوم ولا يَراه أحدٌ... مَن فاته العمل بهذه النصيحة وعَزم عَلى التكفير عن سوء قِراءته، وإصلاح ما ألحقه بعقلي، من جرَّائها، من أعطاب فليعُد إلى مجموع ما انتهى إليه مِن كلامِي، ثمَّ ليقف وقفة خطيبِ الجمعة، ويغمض عَينيه الأمامِيتين ويَفتح عَينيه الخلفيتين إلى أن تشرقَ عليه حُشود الأشياء الصَّامتة التي كانت إلى ذَلك الحين ترَاه ولايَراها، وتكلمه ولا يسمعُها حتى يصير هُوَ هِيَ وَهِيَ هُوَ:

يرى الحذاء فيقولُ: «سُبحاني ثم سُبحاني، ما أنا إلا حذاء!»، ويرى الأفعى فيقول: «سُبحاني، ثم سُبحاني، ما أنا إلا أفعى!»، ثم ليأخذ في القراءة بصَوتٍ مرتفع يُزَلزل بذبذباته الأرض تحتَ مُؤخرات الجيران، ويحرِّك بعُنفه اليدين إلى أن يَركبهما رأسهما فلا تعودَان تتحكمَان فيما تفعلان، ثم ليُرغِ ويُزبد إلى أن يُغرقَه مُثلث النّور في بهائه، وينهمِر عليه طوفانُ الفكر، ويدوّخه سَدِيم الأزمنة... آنذاكَ، ستزاحُ حجُب ما قرأه ويرَى أنني لا أكتبُ حُروفا ولا حروفا أو مُفردات وجملا، وإنما مُعادَلات رياضية لتخليصِكم من عُقال العَقلِ وإغراقكم في طوفان الأزمنة والفِكر.

هَذَيَانُ العُشْبِ

إني موقنٌ الآن أكثر من أيِّ وقتٍ مضى بما يَلي: كلكُم عاقل، وكل عاقل مسؤولٌ عني: فقد أضعتم عقلي، وأوهَنتم إحسَاسي، وقللتمَّ سَمعي، وأطللتم ببَصَري على مشارف النسيَان... ويقيني يشيِّد نفسه لا على أحاسيس تتولّد كيفما اتفق، بل ينبنِي على حُجج مادِّية ملمُوسة، بعضُها منقوشٌ في ذاكرتي، وبعضها يُطل عليَّ من شُرفات رُؤوسكم كلّما وقفتُ أنظر إليكم وأنتم سائرُونَ. نعم، إن لرؤوسكم نَوافذ لا يقف عليها إلا من اعتلى برجَ رأسه، مثلي، وانصرَف يتأمل حُشودَكم وهي تزحَف مُتدافعة بأوهَامها وأحلامها كالثعَابين. وأخبرُكم مِن الآن أنه لا داعي لمراوغتِي لإقناعي بالعكس. فقد صِرتُ الإقناعَ نفسَهُ، وإلا لكَانت عبارة «إني موقنٌ» التي استهللتُ بها هَذه الخطبة خطأ أو ليسَتْ ذات مَعنى. وهذا ما لا يجوزُ في حقي. باطلٌ جملة وتفصيلا، لأنّنِي لا أخطِىء أبَدا. فأنا ما أخرجُ الحرفَ الواحدَ إلا بَعد تقليبه آلاف المرَّات على أبعادِه الثمانية. أتظنّون أنَّ فضاءاتِ رأسي قد فضُلت عني حتى أترك الأفكارَ تسرحُ فيها، تصُول وتجولُ بلا حسيب أو رَقيب؟. لقد وضعتُ للأفكار في عقلي فِخَاخا ومَصَائِدَ، كلما حطَّتْ إحدَاها في مُدَرَّجٍ منه وقعَتْ في شِرَاكٍ، فأمسِكُ بها، وأقلبُها وأتحسسُها بأصَابعي. إن وجدتُها ناضجةً ألقيتُ بها إليكم، وإلاَّ فإني أعاقبها بأن أدمِيها أو أهشِّم

عظامَها كي تُبقِي في المرَّات المقبلة على مسَافة الاحترام بيني وبينهَا ولا تتجرَّأ على مُعاودتِي ثانية. إني أرَى مواكبكم تمرُّ أمامي وأسرَاب الأفكار تحوم حَول رُؤوسِكم كأسرَاب النسُور والغربان، لكنكم لم تصنعوا فِخَاخا للقبض عليهَا، ولم تجشموا أنفسَكم عناء تحسُّسِها، ولذلك تقنعُون بما يهوى عَليكم منهَا، وتعيدُون إلقَاءه إلي مُدَّعين أنكم تفكرُون وأنّكمْ معي تَتواصلون. كلاّ! إني لا أسمع حَرفا واحدا مما تقولونَ. يا قوم! يَلزمني أفيونُ العالم كي ألتقطَ ذبذباتِكم وأتواصَل مَعكم...

وأبلغكم أنّهُ لا دَاعيَ للفرار منيّ خِشية عقابي. منذ لحظاتٍ فقط، نزل عليَّ وحيٌ يقول إنكم العقابَ نفسَه، وإنَّ ما يفرّقُ بيني وبينكم إلا البحث عمن عاقبني. إن تعرَّفتُ عليه استعَدتُ عافيتي وصرتُ مثلكم سويا... متى خاف جلادٌ من سياطٍ وهُو اللاّوي عليها بيديه معا يهوي بها على ظهور ضحاياه؟! سَوف آتيكم بالحجَج والبَراهين. وفي انتظارِ ذلكَ، ها هي وجُوهكم وهاماتكم محتشدَة في غرَف عَقلي أفعلُ بها ما شئتُ وهِي لا تقوَى على قول أيّ شيء و فعله عَدا الاستسلام لمشيئتي. أتدرون أيَّ شيء أفعله بكم؟ إني أحملُ مكنسَة وأكنسُكم كمَا تكنس الأوراقُ والنفاياتُ من السَّاحات العمومية. ولنفترض أنكم تحدَّيتم أمري وتشتتم من حوالي لائذينَ بالفرَار. أينَ المفرُّ؟ هيهَات أن تفرُّوا، ثم هَيهاتَ! وإلا فمن أحَدِّث الآنَ؟ هَل أحدِّث نفسي؟ كلاّ، لستُ مجنونا! لم أفقد عَقلي بعد. والدَّليل على ذلكَ هُو: لكي أشرحَ لكم هَذه الفقرة وحدَها يلزمني البحرُ مدادا والشجر قرطاسا، وهو مَا أملِكه، لكني لن أفعل، خوفا عليكم ورأفة

بكم! وهَاكمُ الدَّليل: سَأجهدُ نفسِي في تقديم شرحِ قصير، مِقدَارُه رمشة عين بالحسَاب الضَّوئي، للعاهرَة التي تمطَّت في بداية هذا النص مُشرعة سِرَّهَا للريح دون أن تستأذن في ذَلك أحدٌ أو يغويها به أحَدٌ:

عندمَا قلتُ «إنِّي»، لم أقصد بهذا الكلام الشخصَ الذي يكتبُ الآن مخاطبا إياكم بما يدَوِّنه. احذروا مَغبَّةَ الاعتقاد أني إياه! من ظنَّ أني الكاتب فأبوه عاهر. فقأتُ عينيه أو كشفتُ له عنه. فقَد فقدتُ نفسِي مُنذ مرضتُ وآل ما تبقّى من حياتي إلى مجرَّد رحلة للبحثِ عني. كمَا لم أقصد بها أناي الضَّائعة التي أبحث عنهَا، فتلكَ لن أعثر عَليها إلى الأبَد. ما قصدتُه هو علامَة الإستفهام المنتصبة بين الأنَيَين، التي تَنِطُّ فوق الأشيَاء والكائناتِ من حَواليَّ كلما التفتُّ إليها فما أنفَكُّ أتَسَاءَلُ أمامها: مَن أنا وماذا أفعَل هُنا؟ فمن أنا؟ وماذا أفعَل هُنا؟ هِه؟! أجيبوا!

لما قلتُ «مُوقِنٌ»، لم أقصِد أنني خلصتُ إلى نتيجة لن أحيدَ عنها. فصباح غدٍ، سأستيقظ بَاكرا، وأخَاطبكم فور قيامي، من السَّرير، قائِلا: «لستُ موقنا»، أو «من زعَمَ أني ادَّعيتُ أنني موقن فأمُّهُ زانية» . يا قوم! أنا لا أعرفُ حتّى نفسي، فمِن أين لي أن أزعمَ معرفةَ شيء مَا؟!». لم أقصد أني لم أخلص إلى نتيجةٍ قط، أو أني خَلصتُ إلى استنتاج مؤقّتٍ سَأعيد فيه النظر فيما بَعد. ما قصَدته هو هَذا الضَّباب الحربَائي الذي يمحُو الفرق بين الشكِّ واليقين في لمح البَصَر، فيصيرُ اليقينُ عندي شكا والشَّك يقينا بكيفية لا ينفعني، للخرُوج منها، حتّى أن أعمدَ إلى شحذِ عقلي عَلَى حَدِّ سِكِّيرٍ (بدل سِكِّين)، فأقول: «إنَّ للشكِّ واليقين أحوالا ومقاماتٍ أربع هي: [شك الشك]،

و[يقين الشك]، و[شك اليقين]، و[يقين اليقين]»، لأنني حالما أحكِمُ تشييدَ هذه الغرَف الأربع، وأشرَع في سَجن معَارف العالم فيها، تكَسِّرُ المعَارفُ المسجُونةُ أبواب الغرفِ، وتتجمهر في ساحَة عقلي ومدرَّجاتِه مطالبة بغرف أرحَب تَسَعُ [شَكُّ يقينِ اليقين]، و[يقينُ شكِّ الشكِّ]، و[يقينُ يقين الشكِّ]، و[شَكُّ شكِّ الشَّكِّ]، و[يقين يقين اليقين]، وهكذا... حتى إذا استجبتُ لمطالبها وأضفتُ غرفا جديدة بعَدد أفواج الحشودِ، وأوصدتُ بابا وَراء كلِّ مَوكب، لبثتِ الخواطر رَدحا من الزَّمَن داخل بيوتها، ثمَّ كسَّرَتِ الأبوَاب واحتشدت في ساحة العقل الكبرى مُطالبة بمنازلَ أرحبَ تَسَعُ [شكُّ شكِّ يقين اليقين]، و[يقينُ يقينِ شكّ الشَّكِّ]، و[شكُّ شَكِّ يقينِ الشَّكِّ]، و[يقينُ يقينِ يقين الشَّكِّ]، و[يقينُ يقين يقين اليقين]، و[شكُّ شكّ شكَ الشكِّ]... إذا كان يلزمُني هذا الكلامُ كله فقط كي أقدِّم لكم شرحا قصِيرا، مقداره رمشة عين ضَوئية، لمعنى «إنِّي موقنٌ»، فكم يلزمني من وقتٍ وجهدٍ عقليّ كي أشرحَ السؤال «أأحمد أنا أم محمد؟»، أو قولي: «جدِّي هو أخِي الأكبر»، أو «أمُّ أمِّي هي عمَّتي الصُّغرى»؟. وأسِرُّ لكم بأنَّ الكتاب الحالي هو سَطران فقط، الأولُ والثاني بالضَّبط، من مُقدِّمة مجلّد أكتبه خصِّيصا للإجابة عن السُّؤَال: «في أيِّ فقرةٍ نحنُ مِن الكتابِ؟». ففي أي فقرة نحنُ من الكتابِ؟

*

*　　*

من الآن فصادِعاً لن أكلمكم إلا بلغَةِ الحيوان. عَوْدةٌ سَعِيدَةٌ إلى إخواننا الحيَوانات. هَا هِي مَواكبُ الأفَاعي، والأرانبِ، والضفادع، والقطط، وبناتُ عِرس وآوَى تحتشدُ في بيتي:

- مساء الخير يا مَعشر الحيواناتِ.

- ...

- لماذا؟

- من أذن لكم باقتِطَاعِ الأراضي التي تدعُونها مدنا من الغابةِ-الأمِّ وترْكِنَا بداخل أجزاءَ منها مسجونين؟

- لم أفعل ذاكَ يا أخي الذئب، لم يَستشرنِي أحدٌ في ذلك يا عمِّي الأسَد، صدقيني يا أختي اليمَامة...

لا أسدَ ولا ذئبَ، لا يمامةَ ولا أرنبَ، لا ابنَ عِرس ولا ثعلبَ، ولا يحزنون. فمنذ دقائق قِئتُ عقلي، وصَار رَأسي خفيفا كالرِّيح. ريحٌ وأية ريح عاتية أنت، عليَّ هببَتِ دون إشعار أو سَابق إعلان إلى أن فرَّقتِ الناسَ من حَولي جميعا، فما فطنتُ لنفسي إلا وأنا محاصرٌ بعُيونهم وكلماتهم وإشارات قرفهم مني، فإلى أين المفرّ؟

وقبلُ:

فإني أنا، وأنا لستُ أنا.

لِنَدَع الآن الحكاية جانبا، ولنفصحْ للقوم عمَّا بدواخلنا محدِّثينَ إياهم بلغة أخرى، بمنطق أكاديميّ آخر:

أنا أنتمي الآن إلى زمن آخرَ، يُولد المولودُ فيه وتقولون: «عمرُه يومٌ واحدٌ»، ثم يكبر، ويجري في زمن يتمطّى عَليكم ويتطاولُ إلى أن تقولوا لمولودِ الماضي: «عُمرك اليوم 14 عاما»... غيرَ أنَّ ذلك كله يمرُّ

أمامي في بضع لحظات لا غير؛ أرَاهُ وُلِدَ، وتململ، ثمَّ حَبَا، فوقفَ، فجرى. أراهُ فَعَلَ ذلك كله بحرَكاتٍ سريعة متلاحقة ما يفصلُ بينها إلاّ مِقدار لمح البصر أو أقل، فأقفُ مشدوها. أذاك هو الأصلُ في ما يفرِّقُ بيننا؟.. أنتم تصرفون أزمِنة طويلة في الحبو والرَّضاعة والذهَابِ والإيابِ والضَّحكِ واللعبِ، إلى أن صَيَّرتم مُهمَّتَكم في الحياة مقصُورة على الأكل والعَمَل والنوم والشربِ، وهو ما يستنفدُ منكم أكياسا من الوقت والجهدِ إلى أن تقولوا: «يا مَالِكَ الوقتِ! مزيدا من الزَّمَن كي نتمكنَ من القيَام بذلك». بخلاف ذلك، تمرُّ حَركاتكم كلها أمامِي بسرعَة البَرق، فأميل يمينا ويسَارا عساني أجد ما أجزي به الوقتَ، ولا أجدُ ما أصرف فيه الزمن عدى الشُّرود في فيافي الفكر واحتواء حرَكاتِ العالم وضجيجه من حولي في انخطافٍ منتشٍ كحشَّاشٍ أو متصوفٍ. وبذلك، فأنا أعاني فراغا مريرا. أنا غارقٌ في بطء الزَّمن وأنتم غارقون في سُرعته. ملكتُ من الزَّمَن ما فاضَ عليَّ وغمرَني طوفانه. انظرُوا: رجلي الآن غارقة في شهر، ويدي في عام. سَاقي في يَوم، ورُكبتي في قرن. رئتي في ألف عَام، وقلبي في مليون سنةٍ ضوئية. فهَاتوا أحوَاض العالم وصهاريجه كي أتصدَّق عليكم بقِسط مما فضُلَ عني من دُهُور. لستُ بخيلا. لو كان شأنُ المرءِ يقاسُ بما يملك منْ زمن لكنت أثرى رجل عرفته البشريَّة في التاريخ، ولكفت زكاتِي وصَدقاتي خصَاص البشر قاطبة إلى أن ألج بهم مَدَاراتِ الخلد والأزل.

إنكم لتعرفونَ هذا حقَّ المعرفة. تعرفونه منذ وُلِدتُ... ويومَ فطنتُ إلى عِظم حجم ثروتِي، وتأهبتُ كي أتصدَّق عليكم بجزء منها وأنطلقَ بكم إلى أبعَاد وُجودِية أخرَى كِدتم بي: اتَّحَدتُم جميعا ضِدّي،

وأضاف كلكم نصيبَ ما يملكه لنصيبِ الآخر حتَّى كادَ مجمُوع زمنكم يعادلُ زمني بمفردي، فجعلتم منكم شرطة، وجُيوشا، ولُصُوصا، ومَلائكة، وأنبياء، وصعاليكَ، وأطبَّاء، وصرفتم وقتكم كله في الانشغَال بي سَعيا إلى منعي من تجاوزكم. فعلتم ذلكَ إلى أن حاصرتموني حِصارا تاما. وبذَلك صرتُ أمَامَكم ما كَان أمامي المولود الذي كبُرَ وجرى في بضع لحظاتٍ.

يا قوم! كلكم عَاقلٌ، وكل عاقل متربصٌ بي، متحكمٌ فِيَّ تحكما تاما، يرُوم الإطاحة بي. حيثمَا أتململ أجد بمحاذاتي شرطيا يتتبَّع أقلَّ حركاتي وسَكناتي. يُنصِتُ لما ظهر من هَمْهَمَاتي وما بطُنَ وهو يدوِّنها في كتابٍ أو يسجِّلها بآلة. حِراسةٌ في الصَّبَاح، وحراسةٌ في المسَاء. حراسَة في المرْحاض، وحرَاسَة في فراش النوم... ابتعدوا عني. لا تَسْتَبْلِدُونِي أو تَسْتَسْذِجُونِي أو تَحْسِبُوا أنِّي أهذي. فأنا أرى أشباحكم عندما تتسللونَ إلى غرفتي، وتختبؤون في صفحاتِ الكتبِ، والأقلام، ومنفضاتِ السَّجائر، وعُلب أعواد الثقاب، وتندسُّون بين سُطور الوحي الذي أدوِّنه الآن (أدوِّنه بمعنى أجعله دُون ما هو في الحقيقة، والحال أنه يُدنَى منه دون أن يُدنَى عليه)، وأفطن إليكم عندما تتنكرُون بصور أفراد عائلتي. أمن حُجَّة بعد هَذا كله؟! وأحذركم من الآن: كُفُّوا عن وضع الألغَام والقنابل في أوانِي المطبخ، وعَتبات الغرَف. لن أسقط في فِخاخِكم! فأنا مُنذ غادرتُ سرير المستشفى ونزَلَ عليَّ الوحيُ لا أستعملُ شيئا أو أمُرُّ بجانبه إلا بعد أن أسأله عمَّن يكون، وعمَّ جاء يفعل هُنا. إن أجَابني عرفته، وإن لم يجبنِي نفذتُ إليه بأحاسيسي المغناطيسيَّة إلى أن أعرفه حَق المعرفة. ألا ما أحوَجَكم إلى الشَّفقة ثم ما أحوَجَكم

إليها!، فأنتم داخل صُندُوق صغير منَ الأفكارِ تقيمون. ولذا، فإني أنصحُكم بالابتعَاد عني، لأنكم حالما تفعلون ذلك يفضل لكم الوَقتُ كلهُ، ويستَوي الزَّمَنان، فتلقون بمَدَافعكم، ومُسدساتكم، وبذلاتكُم، ونياشينكم، وتجلسُون مثلي في الرَّصيفِ، وتصير لكم مشاغل كَمشاغلي، فتخضرُّ الأحزان في رُؤوسكم وتزهرُ، وتسطع في عقولكم أنوارُ الضّحى، وتلمعُ الأفكارُ السوداء عليكم، وتشرقونَ على أنفسِكم بمعارف لا تَرون مَعها الكائناتِ والأشياء من حَواليكم إلا بعين دهشَة البدَايات، وتتيهُون في أنفسكم، فيلقاكم المرءُ في الطريق ويسألكم: «ألسْتَ فلانا بن فلان؟»، فتُجيبونه: «نعم، أنا هُو. إني أعرفني جيدا، لكنّي افتقدتني منذ زَمن طويل. ومنذ فقدتُ نفسي وأنا أبحث عني في كلِّ مكان دون أن أجدَني، فهلا دللتني عليَّ!»، ثم تتركون السَّائل مشدوها وتواصلون سَيركم باحثين عنكم دُون أن تعثروا عليكم، وتمرّون أمَام الشيء فتقفون أمَامه مشدوهين وأنتم تتسَاءلون: «سبحانكَ! من أنت؟ ثم سبحانكَ! من أنتَ؟ ولماذا تصلحُ؟». فسبحاني من أنا؟، ثم سُبحاني من أنا؟ وماذا أفعل هُنا الآن؟...

- لكي نَصل جميعا إلى حَلٍّ لمشكلتي، وإخراجي منَ البئر التي أنا الآن قابع في قعرها مُنذ سنين، هل من الضَّروري أن أمِدَّكُم بسجلِّ حَالتي المدنية أو أوافيكم بعيِّنَةٍ من سلوكاتي اليومية؟

- فسُدَتِ اللعبة!

- ما أغبَاني!

- بل ما أغباكم، ثم ما أغباكم!

- كفَى هذيانا وحَكيا، ولننتقل إلى الضِّفة الأخرَى.

*

*　　*

اعلمُوا أن اللغةَ ممالكٌ، للكلمة فيها مسَالك ومَعَارج لم تهتدوا إليهَا بَعد. فقبل أن تصلَ كلمتكم إليّ تنطلقُ جاريةً نحوي، لكنهَا ما تبلغ مَدخَلَ المنعرج الذي أكونُ في مُنتهاه واقفا أنتظرها حتّى يُصيبها زَحَف أو وَهَن، فتقعد أو تنام، وبالتّالي لا تصلني إلا متأخرة جدّا، ما لم تَمُت فلا أتلقاها بالمرة، أفقِدُهَا إلى الأبَدِ دُونَ أن أعرفَ سببَ شللها ومَوتها، ولا كيفيته. إني أريدُ كلاما مثل كلامي. يُرْسَلُ بذبذباتٍ أخرى، لأنَّ رأسي مُنذ مرضتُ وهو مُثَبَّتٌ في مَوجَاتٍ أخرَى. رأسِي حاسُوب أعيدَت بَرمَجَته بلغة لم تبتكر بعد. ولذلك، أنا غريقٌ في بحار الفكر. هَاتوا أنَابيب العَالم وهيِّئوا صَهاريجه كي أفرغ لكم ما بعقلي من أفكار وبِدمي من أزمنة لن تتضح مَعانيها إلا بعدَ أن تتكلَّسَ عظامكم في المقابر لأنني في المستقبَل أعيشُ. بيني وبينكم فارقُ مليون سنة ضوئية.

*

*　　*

عندما أتيهُ فيكُم، أصعدُ إلى بُرج إقامتي اليوميَّة، وأطرحُ على نفسي خمسين مَرَّةً السؤالَ التّالي: «ما الفرق بيني وبينهُم؟»، فتزحفُ الأجوبة عَلى بسَاط الذِّهن كالأفاعِي، ثم تستقرُّ في غرفِ عقلي، وتقفل

الأبواب من ورائهَا جميعا، تاركة إيَّاي وحيدا تائها في المسَالك الموحشة. أطرق أبوابَ عقلي بابا بابا عسَاني أجدُ من الأفكار من يشفق عليَّ ويدخلني، فيأويني من طوفَان الفكر وجليدِ الأحَاسيس، لا يشفق عليَّ من أفكاري أحدٌ، علما بأنني ربُّ الأفكار جميعا. أنقِّطُهَا. مني تنحَدر، وإليَّ تَعُود. أهذا هو السَّبب في ما شاهدتموني عليه يوم الأربِعاء المنصَرم عندما كنتُ أستجديكم وأنا أمْطرُكم بالدُّعاء قائلا: «آمن يعطينا شويَّ دْ العقل واللاَّ شي فكرة الله يرحم الوالدين»؟ كنتُ مخطئا الخطأ كله. ومَا كان يَحُولُ بيني وبين إدراك فظاعة زَلَّتِي إلا التفاتة صغيرةٌ، في حَجم نملة أو بعوضَة، إلى الحقيقة التّالية: أنتم أيها الملائكة إلى الصَّدقة أحوَج. كانَ عليَّ أن أمُرَّ وحدِي في الطريق، وكان عليكم أن تقعُدوا جميعا عَلى الرَّصيفِ وأنتم تستَجْدونني قائلينَ: «تصدَّق علينا بربع شهر أو عَام، أمولانا الملك، رحم الله لوالديك! امنحنا دقيقة أو قرنا أمُولانا الأمير، رحم الله والديك!». لم أدرك خَطإي، ولذلك لم يشفق علي أحدٌ، فظللتُ تائها في مَسَالكي وممراتِي الباطنية إلى أن وصلتُ إلى المقام الحالي: جسدي الآن منزِلٌ، يداي غرفتاهُ ورجلاي كهفاه، ورأسِي شرفته، وعرُوقي ممرَّاته. غير أنني، مع علمِي الكامل بأنني أتجولُ اللحظة داخل المنزل الذي أنا إياه، أعجزُ عجزا تاما عن تبيُّن مكان وجودِي. يا مَعشر الناس! أرجُوكم هبُّوا لنجدتي. فالغرف بداخلي مُظلمة وأنا في إحدَاها سجين دُون أن أعرف ما هي بالضَّبط. أفي مخبأ الدِّيناميت أقيم الآن أم في مُستودع أدوات البنَاء التي أشيِّدُ بها عقلي؟

من يهُبّ لنجدتي أوجعه لكما ورَكلا، لأنه إلى النّجدة والخلاصِ أحوج مني إليهما!

- هل جُنِنتَ؟

- لماذا تطلبُ النجدة وأنتَ في قمة برج بابل تقيم؟!

- لا أرَى في الشَّوارعِ إلا صوراً جامدة، ولا أسمعُ في كلمات الناس من حولي وحَركاتهم إلا نبرة ماضٍ سحيق. الآخرون حكايةٌ تتالى أفعالها بإيقاع ماضٍ بسيط، وأنا عملٌ مُنهمِكٌ في ماضٍ غير تام. نحنُ الآن معا. هَا هِي صوركم تحاصرُني، وأصواتكم تزعجني. أنتم الآن تلهُون، وَتأكلونَ، وتتكلمُون وتختصمون وتزلزلونَ الدنيا شخيرا، وأنا جالسٌ أكتب خطبتي في هذه السَّاعة المتأخرة من ليلِ الفكر قبالة أفعَى وحيدة قَرن لم تنفك تنظرُ إلي منذ جلستُ، لكني مقيمٌ في يَوم أمس. نعم، أنا الآنَ الأمسُ، البارحة. وأنتم الآن، اليومُ، اللحظة. الأمسُ واليوم متقابلان الآن كمَا يقابل المرء وجهه في المرآة. فأين المفرُّ؟ هيهاتَ أن تفرُّوا، ثم هيهاتَ! أنتم في عقلي مقيمون، وإلا فمن أحَدِّث الآنَ؟ أتظنون أني أحدِّث نفسي؟ كلاّ، لستُ مجنونا! أي الاثنين أقوى عَلى إلحاق الهزيمة بالآخر، الأمس أو اليوم؟ الأمسُ طبعا، والدَّليل على ذلك هُو هَذه العُقوبة الكبرى التي ألحقتها بكم عندما اعتزلتُكم وانزويتُ في الرَّصيف تَاركا إياكم تمرّون أمامي أمواجا ومواكبَ زاحفة متدافعة كالثّعابين. امنَعُوني من التفرُّج عليكم. من يَرُمْ ذلك فلا مَأوى له غير الرصيف حيثُ هيَّأتُ لكم مقاعدَ بعدَدِكُم. فتعَالوا لتُطلوا من شُرفات عقلي ونوافذه المشرعة، وامسِكوا عن محاولة إخرَاجي من هَذه البئر التي أقبع في قعرهَا منذ سنين.

- اسمعا معا. إياكما أعني. اسمعا جيدا، جيدا! لا أحمد ولا محمَّد، لا يوسُف ولا يعقوب، لا أبي ولا أمي، لا أختي ولا عمَّتي، لا

جمهورية ولا أورغانون، لا أكاديمية ولا يحزنونَ. اسمعوا أنتم أيضا، أيها الخونة. لقد حجبتُ نفسِي عنكم لأنني ما أرى صُوركم إلا مرايا تنعَكسُ عليها صُورة وجهي، ولذلكَ، لن أحزن عَلى فقداني، لأنكم جميعا إياي. لقد عوَّضتُ بكم نفسِي فهنيئا لي بكم وهنيئا لكم بي:

أنا الآن متقاعدٌ وهِنٌ، والحياة تتطلبُ العمَل المتواصِل، ولستُ أقوَى على فعلِ أي شيء عدا التأمُّل في فيافي الفكر المنتشيةِ السَّهرانة. وفي كلّ منكم من الحيوية ما يمكِّنه من إنهاء عَمله وإكمَال عمَل الآخرين. لقد أبحتُ لكم إتمام ما كنتُ أشتغل به قبل أن أمرضَ، فهنيئا لكم به، ثم هَنيئا لكم بي. أنا صَاحبُ وَحي عمَّا قريب سيكتملُ نزُوله وأجيئكم بشَريعَة لم يعرفها عيسى ولا مُوسى، فلا تفقأوا عيني - عَافاكم - لأنهما مهبط الوَحي الذي ينزلُ عليَّ. سأكافئكم عن ذلك بإبطال مفعُول القنبلة الثاويةِ في عقلي ومنعِها من الانفجار عليكم.

*

*   *

هل أدلُّكُم على معنى الطقسِ الصَّباحيِّ الذي دأبتُ عَلى أدَائه منذ مرضتُ؟

مُنذ عدتُ من مستشفَى الأمراض العَقلية وأنا أقفُ، كل صباح، وُقوفا طويلا بباب المنزل متفرِّسا في الفضاء ووجُوه النّاس كأنني أبحث عَن شيء ما حتّى إذا وجدته انطلقتُ جاريا كالفارِّ من جماعة تطاردُه، لكن ما أقطع مائة متر حتّى آخذ في السُّقوط والنّهُوض المتواصلين...

والسَّبب في ذلك هو أنني لم أفطن ذات يومٍ إلا وقد صَارت نَسْمَة الصَّبَاح تثيرُ مفعُولا إكسيريّا في خواطِري، فأخذتُ أستيقظ يوميا في منتهى السَّعادة وأنا أقول: «يا له من صبح سعيد!»، أردِّدُ ذلك وأنا موقنٌ بأنَّ النهار الجديد سيحملُ لي مُفاجأة الاستعادة العَفوية لما فقدتهُ من عقلي. لكن بتدفق سَاعات النهَار تطالعني مشارفُ خيبة كوني إلى السُّقوط أميل، فما يظلم الليل إلا وأنا أصرُخ خائفا مفزُوعا من رُعب الصُّعُود إلى الهاوية: أفطن إلى أن فِكرة مَّا قد تسَلَّلَت إلى عَقلي جَرّاء ما خالطته من أشياء مسَّتها أياديكم، فتعلَّقتُ بها، وحملتني طيلة النّهار إلى أن قلتُ: «ها أنذا وجدتُ منفذ استِعادة عقلي السَّوِي»، فإذا بالفِكرة تتمَلمَل في المسَاء منعطفة نحو السُّقوط، فأنتبه إلى أنني خُذِلتُ، إلى أنني كنتُ من الغبَاوة والسَّذاجة بحيث ظلّت الصَّخرة اليومَ كله وهي تميلُ ببُطء دون أن أنتبه، وبذلك أجدُ نفسِي مُعلقا في الفراغ ما يمسِكني إلا الأصَابع التي أشدُّ بها بقوة على الفكرة. إنْ سقطتُ انتحرتُ...

عندَمَا أقفُ صباحا ببابِ المنزل لا أرَى حيثما ولَّيتُ وجهي إلا ضَبابا وغبارا ورائحة مَوت. أرى الأزقة مسَالِك مُوحشة، والناس جُذوع أشجَار مُتحركة، والعِمارات أشجار عملاقة ذات فروع سَوداء وأغصَان جليدية ضَاربة في عنان السَّماء، والطرقات مياه بِرك راكضة، فأتساءلُ: أي اتجاه نأخذ؟، لنأخذ وِجهة الكلام. صَباح الخير يا سِتّ كلمَة. تفضلي. هَا قد امتطيتُ كلمتي الشَّامخة النّاضجة كَي أبحرَ في لغاتكم. أرسلها، تحاصرُوني بكلمة قاصِرة، ترتدُّ إلي الكلمة سائلة: «مَن أنا؟»، أسقط، أستمسِكُ، أقف، لا ينفعني الوُقوف، أحَاول انتشَال

يدي من يدها بعُنف، غير أنها تظلُّ لاصقة بي كقدر مسعور: فبقدرِ ما أحَاول سحبَ يَدي بقوة تضاعفُ هي مِن قوة إمسَاكها بي، وبقدر ما يُسقطني شلل قدمي علَى الأرض تنهضني هِي بقوة وتجبرني على استئنافِ المسيرِ، إلى أن أصرُخ بأعلى صَوتي: «عمّا قريب سَأتحوَّل إلى حُقول زرع وأشجار فواكه. عمَّا قريب سينزرع وينغرسُ كلُّ ما أكلته، فأعيدِيني إلى المنزل. أعِيدِيني إلى المنزل، فأنَا لست يُوسُف!».

- أيُّ يوسُف؟!

- عفوا، عفوا! إنّي أهذي...

كلكم عاقلٌ، وكلّ عاقل متربّص بي، يرومُ الإطاحَة بي. هَا هِي حُشُود أقوامِكم وأقوَالكم ونظراتكم مُتجمهرة في غرفتي. بعضُها مهشم الرَّأس، وبعضها مَكلوم الخاطر. بعضها يزحف، وبعضها يترنّح. وكلّما استجبتُ لتوسُّل إحداهن، وتهيأتُ لتضميد جراحهَا أو إسعافها لإنقاذها من مَوت محقق، لم أفطن لنفسِي إلا وجُيوش الحرُوق الهجائية تكتسحُ جسَدي. أنا الآن أسير بينكم مُغلَفا بفرن زُجَاجِيّ حيثما وضعتُ قدَمي أصَابني حرق مِن بُخار أوامركم ونواهيكم. انظروا هذه البقع البنفسَجية التي كسَت جسَدي إلى أن صارَت له شِبه قمِيص...

*

*   *

أراهنُ بما تبقَّى من عقلي أنَّ مَا في عُقولكُم إلا هُو. مِلْكُ أذهانكم، وقِبلَةُ أجسادكم، وذِكرى أجدَادكم. أمَّا أنا فبريء البراءة

الكبرى منه. لحمِي لم يعد لي. صار جسدي سُور إسمنتٍ مسلح يقيني من الاحتكاك بكم أو التماس معَكم. هُو الآن شيخ، ويدكُم جميعا فيه. مَن فهم الإشارة أدركَ العبارة، ومن فاته الفهمُ حدّثناه بلُغَته. قال: «جهَّزْنا السَّرْج منذ مدَّة. من شَاء أن يركب فليقتربْ. أتريدون أن أدلكم على معنى الزواج؟ هو أن توضعَ للمرء علامةُ **STOP** فوق جبينه، فيمرُّ وتشتهيه سَيداتٌ وأوانسُ وعوانسُ في الشَّوارع، لكنّهن لا يجرؤنَ على مُفاتحته خِشية الممر الممنوع. ها قد نزعتُ العَلامة المحرَّمة منه، ووضعتُ لوحَة زرقاء مَكان الحمراء. من رأيتُها فهي لي ومَن لم أرهَا فلي ثلثاها. أينَ انتهى كلامُه لأغلق المزدوجتين؟ الله أعلم!، بل هل انتهَى كلامه أم ترَاه أراد التمويه عليّ بإلقاء التسَاؤل عَلى لسَاني قائلا: «أين أغلق المزدَوجتين؟» كي يُوهِمني بأنه قد توقفَ عن الكلام في هذا السَّطر فيما سيُواصل الحديث ليوهِمكم أني المتكلم؟

أيُّها الناس! إني بريءٌ بَراءة تامَّة مما أكتبه الآن!، فما يكلمكم منذ بدَاية المزدوجتين حتّى نهاية النص إلا الرِّيح. افترى عليَّ، وزعَمَ أنِّي مُتزَوِّج، وهُو يعلم أني الواحدُ الأحَد، لا زوجة لي ولا وَلد، لم يلدني أحدٌ، لا ولن ألد أحدا!. ها هُو أمَامكم مكشوفٌ. حُلُّوا هذه المعادلة الرِّياضية: من رآه فقد اشتهاه، ومَن لم يرَه فقد شبع منه. اليوم مطرٌ وغدا حليبٌ. فشدِّدُوا الحراسة على مؤسَّساتكم.

*

*   *

لفرطِ ما عاشرتُ السَّماء تأتى لي من المعارف بالكواكب والمجرَّات ما لم يملكه بشرٌ من قبل ولن يملكه أحدٌ من بعد. فأنا أعرفُ مسالك درب التبَّانة مَسلكا مسلكا، وممراته ممرا ممرا، ومنعرجاته مُنعرجا منعرجا. ولذلكَ، ينتابني قلقٌ كبير، وإحساسٌ بالغبن الشديد كلما سمعتُ عن انطلاق مَركبة فضائية، لأنني أقصَى من مُرَافقة رَبابِنَتِهَا إلى السماء دونَ مُبرر معقول، أنا الذي أعيش بمنطق السَّمَاء، وأتكلم بلغته، وأرَى ما لا يَراه الآخرون وأسمع ما لا يسمعون. أهذا هو السَّبب في أن لا أحد منهُم فهم كلامي إلى اليوم؟ أيكون رُعب ما امتلكته من مَعَارف هو الذي أصمَى آذانهم وأقصاني من حقول تواصُلهم؟

اصحبوني معكم إلى الفضَاء كي أُرِيكُم المدنَ السَّماوية القابلة للسَّكن. نعم، السَّماء ممتلئة عن آخرها بمدن قابلة لإيوائكم، والدليلُ على ذلكَ كونُ الحيواناتِ متربصة بنا جميعا. إذا اعتقدتم أنكم قد تفوَّقتم علينا أو اتقيتم شُرورَنا إلى الأبد أخطأتم. أعلمتم ما تردِّدُه حُشُودنا عندَما تتجمهرُ في غرفة من يخاطبُكم الآن وتنهمك في النّظر إليه لاستراق مَا يُدوِّنه من وَحي؟، نردِّد:

«نحن، معشر الحيوانات، نفكر مليا، ولا ينقصنا إلا الخيط الرابط بين الفكر والعمل كي نهتدي إلى استرجاع ما استلبَهُ منَّا الإنسان. ما المدنُ إلا مُستعمرات اقتطعها بنو البشر ظلما مِن الغابة-الأم، غابة البدء حيث كانت اليمامة أختك، والسّبع أباك، والضّبع عمّك، والفيلُ أخاك...»

ومعنى ذَلك أن مَثلَ الحيوانات في الغابة كمثل الشَّخص الذي رأيته ممدَّدا في الطّريق، بعد أن داسته سيارة، أثناء قفولي في أحَد

أسفاري من عطارد إلى المرِّيخ. كان الجريحُ ممددا في حَال بين الإغماء واليقظة، ويعرفُ أنه في منتهى الخطر يُقيم، أنَّ سيارة أخرى لا محالة قَادمة يحتمل أن تدهسَه ثانية وتحيله إلى رَميم، وما يفصله عن الخلاص إلاّ القدرة على نصف حَركة. كذلك الحيوانات: هيَ الآن مُنهمكة في التفكير في كيفية الزَّحف على المدُن، واسترجاعها إلى حظيرة الغَابةِ-الأمِّ، ولا ينقصها إلا نصف فِكرة لتحقيق ذلكَ. وعليه، فلكم أن تختارُوا الآن بين أمرينِ:

الأولُ: أن تأخُذوا عقلي المزوَّر وتعيدوا عقلي الحقيقِي الذي اختلستموه مني. ولتسهيل هذه المهمَّة عليكم، فقد هيأتُ نفسي لذلك منذ مدَّة. اجتهدتُ إلى أن أفلحتُ في نزعِ دِماغي من رأسي دُونَ أن ألحق به أدنَى ضرر، ثمَّ وضعتهُ في علبة وأحكمتُ إغلاق جيبي عليهِ. عقلي الآن في جيبي، ما يحدِّثكم اللحظة إلا الريح. وهَذا هو معنى قولي قبلَ قليل: «عندما أقولُ "أنا"، فإني لا أقصدُ أنا، كما لا أقصد أيَّ شخص آخر كنتُهُ أو سَأَكُونُهُ غدا أو بعد غدٍ أو في العَام المقبل»، وقولي: «إنَّ "هُوَ" هُوَ الذي يحدثكم الآن». من هُو؟ الله أعلم!. وإذا تعذر عليكم إعادة عَقلي أريتُكُم تقنية ليس «صنع علب العقل» فحسْب، بل وكذلك تقنية صُنع علب حفظ نفايات أجسَادكم لتتحَوَّلوا إلى كائناتٍ قدسية.

الثاني: أن تتمادَوا في رفض إعادَة ما سَرقتموه مني. إن تفعلوا أعمد إلى الغابة، ثمَّ أفتح علبة عقلي وأناولها للحَيوانات، فتستعيدُ بوصلة الاهتداء إلى طرُق استرجاع الغابةِ-الأمِّ. فتصيرون ما هي إياهُ الآن، إلى أن لا يفطن كل واحِد منكم لنفسِه إلا وهو هزارٌ في قفص أو

ضفدَع في بركة، أو فيل في حَديقة عمومية، أو زرافة في مَحمِية طبيعية...

إنني لأنفق ساعاتٍ طويلة يوميا لأبلغكم هَذا الأمر، ولا من مُنصت أو مجيب. ولأني غسَلت يَدي نهائيا ونفضتهُما من إمكانية التقاطِكُم مَوْجَتِي فعليَّ أن أكتشفَ الحلَّ بنفسي. وفي انتظار ذلكَ، ها أنذا أقبع في مكان شبه آمن: أنا الآن في وضع اعتِباري يقع بَين الحيوَان والإنسان. لستُ حيوانا لأنني مقيم بينكم، ألبسُ ما تلبسُون، وآكلُ ما تأكلون، وأنامُ كما تنامُون، ولستُ إنسَانا لأنني أفهم لغة الحيَوانات وأدرك منطقها، وأعرفُ غصن القرابَة الذي يجمعني وإياهَا في شجرَة نسابة الكون الكبرى. وهذا هو السَّبب في اختفائي الدَّوري من بين ظهرَانيكم: أكون بصدد تفقد الغابَة لإحياء صلة الرحم مَع إخواني الذئبِ، والغزالة، والبقر الوَحشي، والفيل، والقرد، والبوم، والغرَاب، وما إلى ذلك. وحَاشا أن يتنكروا لجميلي يَوم ينجحوا في الزَّحف على المدُن، والإطاحَة بكم، واقتحام منازلكم، وطردِكم منها. فهُم أعطوني العهُود والمواثيق بأن يُنَصِّبُوني عليهم مَلِكاً حَالمًا يلحقوا بكم الهزيمة الكبرى. لِذا، عليكم من الآن فصَادِعاً أن تكفوا عن مُناداتي ب « أحمد» أو «محمَّد». نادوني ب «مَولانا الملك» أو «سيدنا الأمير». ألم أخبركم بذلكَ مِن قبل؟ ألم أقل لكم: «اجمعُوا حقائبكم وأعدُّوا عدة الرَّحيل»؟!...

في بعض الأحيان، أنفضُ أشواكَ الفكر من حَولي، فيلوحُ لي أفقٌ قُزَحِيٌّ مماثل: أتوهَّمُني حيوانا، ووُجُودِي في المجتمع البَشري لا يخرُج عن أحد أمرَين: إما أن المكلف بوضعِي في الأرض أخطأ إنزَالي، فوضَعَنِي

في مَدينة بدَل غابة، أو أنني ضحية كيدِ الحيَوانات ببني الإنسان: لعلهَا اقتربت من الحلِّ، فأرسلتني بهيأتي الحالية كي أتجسَّسُ عليكم وأوافيها بالمعلوماتِ الضرورية للإطاحَة بكم في أقرب وقت ممكنٍ وبأقل الخسَائر المحتملة، أو لعلها اكتشفت الحلَّ نفسَه في شخصي فجعلتْ مِني قنبلة أو صاروخا. نعم، أنا الآن صَاروخ أو قنبلة ألقَت بها الحيواناتِ عليكم. ابتعدُوا! تفرَّقوا! انطَرِحُوا جميعا على الأرضِ كي لا تصيبكم شظايا عَقلي، لحظاتٍ وأنفجرُ.

أما البَحْرُ الثّاني، فـ...،

أيُّ حِبْرٍ؟

عَفوا! نسيتُ.

كنتُ أهذي!

المحتـوى

صدر للمؤلف

نصوص سردية:

- **حديث الجثة** (نصوص سردية)، مكناس، منشورات علامات، 1996.
- **كتاب الفقدان، مذكرات شيزوفريني**، الرباط، مطبعة المناهل، 1997.
- **سِفْرُ المأثورات**، الرباط، مطبعة المناهل، 1997.
- **بالعنف تتجدد دماء الحب (رواية)**، مكناس، مطبعة سندي، 1998.

دراسات:

- **ذاكرة الأدب في الشعر والرواية والمسرح** (دراسة)، مكناس، سندي للطباعة والنشر والتوزيع، 1999..
- **الإسلام والسحر**، الرباط، منشورات الزمن العدد 16، 2000.
- **هوامش في السحر** (دراسة)، القاهرة، وكالة الصحافة العربية، 2002.

ترجمات:

- **الفرنكوفونية والتعريب وتدريس اللغات الأجنبية في المغرب** (ترجمة، المؤلف: الدكتور المصطفى الغربي)، مكناس، مطبعة سندي، 1994.
- **أبحاث في السحر** (ترجمة، المؤلف: جماعي)، مكناس، مطبعة سندي، 1995 / إفريقيا الشرق، 2007.
- **لغة العلاج والنسيان، دراسات في ألف ليلة وليلة وقضية «الآيات الشيطانية»** (ترجمة، المؤلف: جلبير غرانغيوم)، مكناس، سندي للطباعة والنشر والتوزيع، 1996.
- **التربية والحداثة** (ترجمة، المؤلف: الدكتور المصطفى شبَّاك)، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1998.
- **السحر من منظور إثنولوجي** (المؤلف: جماعي)، مكناس، مطبعة سندي، 1999 / إفريقيا الشرق، 2009.
- **السياسة والأخلاق في السياق العربي الإسلامي** (ترجمة، المؤلف: الدكتور حميد الدليمي)، مكناس، سندي للطباعة والنشر والتوزيع، 1999.

- **اللغة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي** (ترجمة، المؤلف: جلبير غرانغيوم)، مكناس، الفارابي للنشر، 1995 / إفريقيا الشرق، 2009.
- **الأدب الرقمي** (ترجمة، المؤلف: جماعي)، الرباط، الدار المغربية العربية للنشر والطباعة والتوزيع، 20016.